مخلوقات الاشواق الطائرة
و
محطة السكة الحديد



ادوار الخرّاط

مخلوقات الأشواق الطائرة
ومحنة السمكة الحديد

إدوار الخراط

مخلوقات الأشواق الطائرة ومحطة السكة الحديد

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٠م

وتُطْمِعُني الأشواقُ حتى إذا بدا
جمالُك لم أملك لساناً ولا نطقا

«طهارة القلوب»
الدريني

وجه مقطوع

«وعلى وجه الغمر ظلمة»

قلت للوجه الطافي على الغمر: لماذا.. لماذا تركتَني؟
كانت في نظرته إليّ معرفة القديم.
كنت أحاجّه ولم يجاوبني.

قالت: وجهك، من على جنب، الآن فقط أراه. مثل وجه أخناتون. متوفِّز وحسّاس. واستدركتْ: لا تظنّ أنني أغازلك.

أجبتها باسماً: الآن فقط أدركت أنك فعلاً تغازلينني. فقط عندما قلتِ. ولن أفوّت الفرصة.

ضحكت عن أسنان قويّة، لاحظت أن السنّتين العلويتين مربّعتان تقريباً، كبيرتان، فيهما أثر التدخين.

أحسست بحرارة جسمها جنبي، تحت المائدة المزدحمة بالمدعوين والمدعوات، والفضيات الثقيلة وأطقم «ليموج». وكانت القاعة عالية التدفئة، والسفرجي النوبي يملأ لي الكأس الكريستال المضلَّع الذي يتموّج بصهبة النبيذ ويشعّ بشررِ الضوء الحاد.

رفعت كأسها لي، في حركةِ تواطؤ شبه معلَن، ووجهها الخلاسيّ الداكن يلمع بالانفعال وحُميّا المائدة. رأيت قطرة عَرَق كاللؤلؤة على بلاطة الصدر الغامقة بين الثديين المدوّرين الصغيرين، من غير

سوتيان، متباعدين تحت بلوزتها الحرير. كان لون جلدها الداخلي بُنّياً محروقاً أكثر من لون وجهها، غضّاً ومثيراً.

قالت، وقد ضبطتْ نظرتي: هل رأيت وجه سيبيليوس؟

فلم أرفع عيني.

قالت، بفقْهٍ وتوسّل: ما زلت مسحورةً بقوّته الصخريّة. والعلاقات المتعدِّدة الصوت بين أعمدة الأرغن المعدنيّة وهذا الحجر الخام الذي يرسو عليه الوجه المقطوع. هل رأيته؟

قلت مسايراً، جادّاً، بنصف ابتسامة: نعم. ذلك التوتّر الخاص بين الخفّة والرسوخ، بين الموسيقى والصَخَر.

سوف أقول في زمانٍ سحيق: ما أشبه وجه سيبيليوس بالوجه الواحد لرجالها الآخرين، مربع، صارم، نهائي السلطة. وما أبعد وجه أخناتون عن هاتور.

أحسست فخذها يستريح إلى جانب ساقي وأغواني الخط المتعرِّج بين بياض الكف والسواد - تقريباً - في ظاهر اليد، وهي تمدّ لي كأسها، ثانية.

سورٌ من الحجر الأبيض الهش أمام عصف الأمواج العاتية.

قلتِ، وأنا أضغط بجسمي ضغطاً هيِّناً على فخذها، وقد انتصبتُ:

- عندما تعودين إلى أنجولا، بعد الاستقلال، هل تعتزمين العمل في الحجر، الرخام، ونحوها، هل تغويك مادة مثل الخشب والألياف، أوراق الشجر أو حتى القش والقماش والبوص إلى آخره؟

يعني، ماذا أقول؟ هل أقول المادة العرضية الزائلة السريعة البِلى؟ الفن الذي يُسقِط ادعاءات الخلود يعني.

قالت: أنت أسلافك سادة الخلود، أليس كذلك؟

قلت: الخلود؟ كل مادةٍ إلى فناء. كل شيءٍ إلى فناء.

كانت نظرة عينيها الخضراوين، من فوق وجنتيها الداكنتين العظميّتين قليلاً، مرهفةً ومشتعلةً بحزن، وشوق. بينما شفتاها اللحيمتان، فيهما لَميً وحمرة مظلمة، من غير «روج»، مفتوحتان، لا تنطبقان، توحيان بشهوية الأسلاف.

وكان السفير يتحدَّث بنبرة ديبلوماسية هادئة وعليها سيماء الموضوعية عن الغارة الأخيرة على بحر البقر، وأجاب طارق نور الدين بوصف ضافٍ عن النقاط الحصينة، على الشط، وقال إنها مكونة من ثلاثة طوابق على الأقل - بعضها أكثر - وإنها تغوص في باطن الأرض وترتفع واجهاتها الحجرية حتى تصل إلى قمّة الساتر الترابي، بعلوٍ إجمالي ٢٥ متراً أو أكثر من القاع للقمة، وبطول ٢٠٠ متر تقريباً. وكل طابق من عدّة دُشَم من الإسمنت المسلَّح المقوّى بقضبان السكّة الحديد المنزوعة وألواح الصلب. وبين كل طابق وآخر عازل من الشبكات الحديدية والخرسانة المسلَّحة والرمال المدموكة بسمك مترين تقريباً. وقال إن كل دُشمة فيها عدة فتحات تمكّنها من الاشتباك في جميع الاتجاهات، والدُشَم مجهّزة بقطع المدفعية من عيارات مختلفة، وفيها دبابات أيضاً، وتتصل بعضها ببعض بخنادق مواصلات عميقة مبطّنة بألواح الصلب وشكاير الرمل، وقال إن هذه النقاط معدّة لتلقي قنابل ألف رطل دون أن تتأثّر، وإن الإمدادات فيها - ذخائر ومياه وتعيينات - تكفي لمدة لا تقل عن شهر. وقال إنها

يمكنها أن تقيم سواتر من النيران متصلة على طول الشط، دون ثغرة، وأنها مصمَّمة بحيث لا يمكن أن تُنال.

كان صوته تفصيلياً، محدّداً، ليس فيه ما يوحي باليأس.

قالت لي: هل قابلت أبيلا هيلتونين؟

قلت، بغضب: نعم. كلَّمتني هي أيضاً عن أخناتون. امرأة صغيرة القدّ، كيف صنعت هذا النصب العملاق...؟ هل لاحظت القوة في أصابعها الرقيقة؟

كانت مدام عايدة، زوجة السفير، تجلس على مبعدة قليلاً، في الجانب المقابل للمائدة. (عرفت فيما بعد أنه وزير مفوّض فقط وأنه أحد ثلاثة أقباط وصلوا إلى هذه الدرجة في السلك الديبلوماسي، أحدهما في الملايو والآخر في الكونغو)، وكانت نحيلة وأنيقة جداً وصعيدية الملامح، ذكّرتني فجأة بعايدة مكرم عبيد وسألت نفسي: ترى أما زالت تعيش؟

قالت لجارتي بالفرنسية، بلهجةٍ باريسية لا تشوبها أدنى لكنة:

ـ مارتا، هل خلصت من بورتريه أجستينو نيتو؟

ابتسمت جارتي وقالت، بلكنةٍ برتغالية قليلاً:

ـ وهل يمكن أن أخلص منه أبداً؟

وعرفت فيما بعد أن علاقة حميمة تربط بينهما.

لم أتمالك، فضحكت بصوت عال، لعلّ النبيذ كان قد صعد إلى رأسي، التفتت إليّ الأنظار لحظة، ثم عاد لغط الحديث في الحرب والسياسة وفضائل أصناف الأكل المصرية وميزان القوى الدولية، مع إيقاع اصطدام الشوك والسكاكين على الصيني، وارتفاع الكؤوس

وأمواج المودة التي تأتي مع الطعام الجيِّد والشراب الجيِّد.

تذكَّرت أنني سأقول فيها بعد الزمن الأخير:

ـ عذبتني الثانية لسيبيليوس. زلزلت قلبي.

وأنها سوف تقول:

ـ الموسيقى بناء وتشكيل في ذاته. تصميمٌ نصيٌّ بحت. ليست هزّة للقلوب، ولا توحداً بمشاعرك أنت. ليست عاطفية.

أم أنني لم أقل، ولم يحدث؟

في قلب الليل كانت بين ذراعيّ وساقيّ عارية وصلبة القوام وأملوداً لدناً معاً، حارّة وباردة الجلد ملساء معاً. جسماً خالصاً. تقاطيع هذا الجسم كاملة، برونزية الصياغة. كانت أصابعها المحنكة تتحسّسني وتعرك انتصابي تعجم عوده بدربة ومعرفة. مرَّ بخاطري خطفاً: كم مرّة فعلت هذا مع الرجال، وتماثيلهم؟ وكأنما قلت، مخطوفاً: ما أهمية ذلك، بل ما معناه؟ وكان ريقها رطباً وشفتاها الكبيرتان فيهما سخونة، ومَلاَءة خاصة. وكانت تضحك فجأة، وحدها، من سعادة اللحظة. ولم تكن تراني.

الأزهار المُرّة صلدة.

عندما خرجتُ على وجه الصبح في انتظار التاكسي الذي طلبته لي بالتليفون، باللغة الفنلندية، والذي سوف يحملني إلى غرفتي في الفندق ـ وقد رأيت وحشتها وخواءها من الآن ـ صدمتني هَبّات البرد ونفذت إلى عظمي. أحكمت لفّ «الإيشارب» الصوف حول رقبتي تحت ياقة المعطف الثقيل. كانت أكوام الثلج الصغيرة القذرة على جانبي الأرصفة ومفارق الطرق تذوب ببطء وتسيل بماء قليل له خرير

مسموع في صمت ما قبل الفجر. وأنوار مصابيح الشوارع صفراء تومض بهالاتٍ غير منتظمة الاستدارة في بلل الهواء المحمّل بقطرات دقيقة جداً من ماء الضباب، الأبنية الراسخة تبدو لي ثقيلة ومغلقة وجدرانها السميكة لا منفذ منها، وطأتها لا تحتمل. ورأيت على ناصية الشارع الكلمات تنير وتنطفىء بالنيون: « MILK BAR ». ووراء الواجهة الزجاجية الممتدّة بطول المبنى، ساطعة من الداخل بالنور الثابت، قامت علب الزبادي المرصوصة في أهرامات منتظمة، وأنواع الجبن في أقراصها المدوّرة الصفراء الصلبة ومربّعاتها البيضاء الطرية المتماسكة وزجاجات اللبن منتفخة البطون متعددُة الأحجام والمعلّبات الأخرى التي لم أعرف أن أقرأ ما عليها ومكعّبات الزبد في أغلفتها الفضيّة، وراء زجاج الثلّاجة الضخمة، كلها أنيقة كأنها موسيقية النَسَق، تحسب أنه لا يمكن أن يمسسها سوء.

تحت الواجهة الزجاجية العريضة تماماً، كان الرجل راقداً على الرصيف المبلول، معطفه مفتوح عن بطنه الضخم الذي يرتفع وينخفض في إيقاع التنفس الصعب، وقميصه مشعث خرجت أطرافه من حزام البنطلون، وجهه محمرّ مربدّ ومغمض العينين في نسيانٍ تام. قلت: هل تتركه هذه المدينة، هذا العالم، كما تركهما؟ قلت: ألن يسعفه شيء، ولا أحد؟ قلت: أبحاجةٍ هو إلى نجدة، أم في هذه الظلمة نجدته؟ ودهشت إذ جاءني من بعيد صياح ديك، طويل وموقّع في السكون، ونباح كلب لا يكاد يستبين. كأننا في قلب الريف. بينما التاكسي يصل إليّ في وسط المدينة بعماراتها الشامخة الصامتة، ونفيره، من النوع القديم، ينبّهني: «أُو. . أُو. .» موجزاً وعميق النبرة. عاد إليّ فجأة ليل الطفولة المتوهّج أبداً بظلامه الخاص

وتحرّكت أشواق الطفولة القاهرة، وقلت: ما أكثر ما يحمل الفجر من مرارة!

قلت في ليلي: أيسقط دمي في الشوارع أمام وجهك؟

قلت: هربَتْ من وجهه الأرضُ والسماء، ولم يجد لهما موضعاً.

وقلت: كثير التحنّن. لم يحوِّل وجهه عنك. لكنه لم يتكلّم. لم يحاورني.

كان قلبي ممتلئاً أشباحاً والظلمة التي فيَّ كاملة.

وجه الحجر لم يتدحرج عن فم القبر. هل جاء، ومضى؟

تضرّعتُ: مدّي أصابعكِ والمسي فمي. لكي يضيء وجهكِ كالشمس في داخلي وتصير جوارح جسدكِ بيضاء كالنور. أفي هذا خلاصي؟

وجدت نفسي طعيناً. آثامي مدفونة في أرض جنّاتي. أبيتُ طول الليل على شواهد المقابر وأقيم طول النهار محرقة متقدة لها دخان دسم يرتد إليّ دون رسالة.

كانت على جدار غرفتي في الفندق بقعة بيضاء ترفرف وتعطيني حسّاً بأنها فراشة كبيرة جاءت من الأشجار تحت أنوار الشارع ودخلت من النافذة. ضربتها بيدي، بخفّة، كأنّني أهشها. تضخّمتْ فجأة واتسعت وانفجرت، دون صوت، وسالت بعصارة بيضاء نقية وكثيفة كالعجين. ومن السائل البطيء الثقيل تجسّد لي وجهها، معذّبة بالألم، ممزّقة، تصرخ بالشكوى دون أن تقول كلمة واحدة، وتسيل العصارة البيضاء من عنقها. ضَربَتِي قَتَلَتْهَا. من هي؟ هل أعرفها؟

وبجانب الوجه الذبيح ،كانت البقعة البيضاء تكبر، وتتجسّم، تتخذ معالم وجه آخر، غامض وصلب، دون جسم، دون عنق، نظرته ثابتة. هو، يعرفني. رأيت أن ورق الجدار كان باهتاً ومنقوشاً بزهور صغيرة حمراء وصفراء دقيقة الخطوط.

وما زال وجه الفتاة المقتولة يحمل لي إدانة نهائية.

الإثم الذي لا يُطاق.

تؤرّقني الجريمة.

١٩٨٩/٧/٢١

أشواق المرايا

«مُخَايَلةٌ وعَدَمٌ مُحِيق»

عندما أوشك القطار على الوصول، وتباطأت دقّات سرعته قليلاً، كانت رائحة البصل في الحقول، بالليل، تكاد تغلبني. كان الجو حارًّا، والهواء شحيحاً، والنافذة مكسورة.

كنت قد قرّرت فجأة أن أسافر، ولووحدي، بآخر قطار لألحق الليلة الكبيرة، لم أكن قد حضرت مولد مارِ جرجس من قبل، قلت: أسهر طول الليل في المولد، وأعود بقطار الفجر.

نفذت بصعوبة، وسط الزحام، من الباب الحديديّ العالي مفتوحاً على مصراعيه، وكنت أنقل قدمي بحرص وأنا داخل حوش الكنيسة بين أكوام النائمين والجالسين على الأرض، في حلقات وجماعات وعائلات، افترشوا الحصير والأحرمة الصوف القديمة والأبسطة القماش المتربة، الأطفال عُراة تقريباً تحت ملاءات السرير عليها آثار البقع المصفرة، والنساء بقمصان النوم عاريات الأكتاف، والرجال بالجلاليب أو بالفانلة والبنطلون، وبينهم العجائز يقِظات متربصات لَمْن كَدَش شعرهن الأشيب في أطرافه آثار الحنّة، وعليهن الطُرَح والفساتين قديمة الطراز مغبرّة السواد.

عندما دخلت صحن الكنيسة الغاصّة بالناس كانت القبّة شاهقة ومعتمة، النساء على جنب، غطين رؤوسهن، يحاولن إسكات أطفالهن، والرجال واقفين أو جالسين على الدكك الخشبية اللامعة، يشاركون في الصلاة بالقبطية والعربية، كانت أمواج القُدّاس الليلي تعلو وتنخفض تحت الأنوار المتعدِّدة البؤر من السقف وتحت تيجان الأعمدة الرخاميّة الرومانية الشكل. صور المسيح وتلاميذه القدّيسين تبدو باهتة وتحتها نور الشموع أصفر وضعيف. أمام حجاب الهيكل صورةً هائلة لمارِ جرجس يطعن الحية العظيمة، والنور الكهربائي يومض على زجاج الصورة ويكاد يطمس معالمها.

انتظرت قليلاً ثم خرجت إلى الحوش المزدحم، ومررت على باب الكنيسة بالقس في ثيابه السوداء يصلّي ويُعزّم ليخرج الشيطان من امرأة مصروعة، ولاحظت حلل الطبيخ وبوابير الجاز مطفأة تحتها: قلت: تعشّوا من زمان، وناموا، أو سهروا في انتظار العريس.

كانت رائحة البصل من الحقل قد خَفّت الآن كثيراً ولكن أنفاسها ما زالت معلّقة في السماء المكتومة.

أصداء القُدّاس غير المفهومة تأتيني من داخل الكنيسة والتسابيح والترانيم من المولد، مختلطةً بأغاني الراديو والمواويل وترجيعات المزامير وإيقاعات الصاجات السريعة المجوّفة النبرة وشكاة السمسية من خيام الأذكار وغناء الرجال القوي الخشن من السرادقات المفتوحة المقامة على قضبان خشبية رفيعة، بين صفوف أكوام البطيخ المفروشة على الرمل وعربات الفاكهة واللب والسوداني والمِجيلي والكشري، وباعة الفلافل التي تطشّ في طاسات الزيت الضخمة الفوّارة، ونصبات

المقاهي المُرتجَلة بموائدها الصفيح، ومدخّني الشِيش والجوزة، والوشّامين الذين تتقد على البرك الخشبية أمامهم فوهاتُ لهبٍ حادة قصيرة من اسطوانات الغاز الصغيرة يرسمون بالإبرِ الدوّارة الدقيقة، والوشمِ الأزرق، علاماتِ الصليب على معاصم النساء وصورَ الشهيد العظيم على صدور الرجال.

فجأةً رأيت المرآة الكبيرة القديمة مسنودة من الخارج على الباب الحديدي لحوش الكنيسة.

كان لها إطار مذهّب باهت الآن سقطت قشرته عند الأركان، مشغول على هيئة أزهار وأغصان متشابكة متلوية على الطريقة القديمة بينها وجوه الشاروبيم الصغيرة المدوّرة المنتفخة الخدود. وكانت ناصعة الزجاج، صافيةً بنقاء لا تشوبه هبوة، وعميقة.

كانت ساحة المولد الغامضة بالليل ممتدّةً بداخلها، كلُّها، بأنوارها المتراقصة: حبال المصابيح الكهربية الممدودة والمتدليّة، وكلوبات الغاز اللبنية الضوء، ومشاعل النار المدخّنة على عربات الترمس والبرتقال الصيفي.

رأيت الرجل الغريب يقف أمام المرآة، جامداً، يُحدق فيها بثبات، لا يتحرّك.

كان نحيلاً وطويلاً، قدماه الغليظتان تبدوان مفلطحتين ومتربتين في الصندل المعمول من مطاط العَجَل وحبل الليف. وكان عليه جلباب صوفي قديم رثٌ نسيجه وخفٌ وتقطّع، وظهر تحت تمزقاته جسمُه الداكن وعظامه العجفاء.

ورأيت حول رقبته الضاوية ـ تفاحة آدم كانت كبيرة جاحظة ـ

صليباً خشبياً ضخماً بأطرافه المورقة، معلّقاً بحلقة من الجلد الأسود الذي بدا لي في أنوار الليل المهتزّة، غيرَ نظيف تماماً.

كان معتمراً بكوفية طويلة كالحة السواد تلفّ رأسه وتنزل على كتفيه.

وكانت عيناه عميقتين ونارهما متقدة في الحفرتين الغائرتين.

مَنْ الرجل، عم لاونْدِي؟ لا يمكن.. كنت طفلاً عندما عرفته لأول مرّة، في أخميم. كان يسرق لي الحلاوة الشَعْر وآكلها منه، خِفية منذ كم سنة؟ ثلاثين، خمس وثلاثين سنة؟ أو أكثر. لم تتغيرٌ فيه نأمة ولا ملمح. هو نفسه دون أدنى شك، ودون أدنى تحوّل.

استبدّت بي الغرابةُ فخطوت إليه دون تردّد، ودخلت حيّز المرآة الكبيرة.

كانت المرآة خاوية تماماً، رائقة وساطعة، ليس فيها أدنى رقرقة.

بينها المولد يموج ويغصّ حواليها.

لا الرجل، ولا أنا، ولا شيء مطلقاً داخل الإطار القديم المشغول بالورود ووجوه الملائكة الناصلة الذَهَب.

طلبت روحي، يا نور عيني. وروحي لَك
رأيته، مرّة واحدة.

نحيلاً طويلاً. دقيق القامة يبتسم أهون ابتسامة. وجهه شاحب وحليق وأنيق تحت الطربوش المكوي الحاد الأطراف، مائلاً على جبينه أقل ميل، بذوقٍ وغندرةِ الثلاثينات المرهفةِ الحس.

وكان جلبابه سابغاً ومهفهفاً عليه، من الحرير السمني السكروته،

وعليه بالطو بلدي جبردين أسود، محكم التفصيل، غالي القماش، ينزل على الجزمة الصفراء، برقبة، أزرارها الدقيقة المتتالية مدوّرة ولامعة وصفرتها أدكن قليلاً من جلد الجزمة.

كنت أقف وراءه مباشرة. أراه هو، ولا أراني، في المرآة.

ليس في المرآة إلّاه.

ثم رأيتها. هل هي التي في داخل المرآة؟ أم هي أمامي، تواجهني، خارج المرآة؟

ابتسامتها لي أنا مُغوية، وعيناها في أنوار المولد صفراوان خضراوان متقلّبتان بشهوية. كانت أمامي، فستانها الحرير السمني، تحت الملاية السوداء الكِريشة، ينساب على جسمٍ بض، ونهداها يرفعان القماش وتبدو الحَلَمتان منتصبتين وراء النسيج المنسدل بنعومة.

كان شعرها ظاهراً تحت طرف الملاية، ملموماً بعصابةٍ حمراء تقمط جبينها الناصع المدوّر، وكان حذاؤها عالي الكعب مدبَّب البوز صفرته داكنة وسير الحذاء يلفّ ظاهر قدميها ويحبكه يضغط على اللحم قليلاً.

كانا يتقدّمان إليّ، بخطوٍ سريع مهاجم. وكانا متطابقين في كل شيء. جسم واحد، ثنائياً مزدوجاً دقيق القِسمة. ولم يكن هناك حولي حركة ولا همسة. تَمَاثُلٌ تام في كل شيء حتى حركة الأصابع الممتدّة المتقبضة التي تمسك بي. إلاّ في ضميريْ المذكّر والمؤنّث. حتى نظرة العينين، واحدة، في حيِّز المرآة الذي ليس فيه شيء آخر. ثُقْبٌ، فجوة، هوة ناصعة نقيّة مجوّفة في قلب ساحة المولد التي تضطرب وتمور وتعج بالناس والأشياء. فراغٌ صامت في قلب ضجيج البهجة والاحتفال.

وكأنني ـ أنا ـ على التخوم. لم أعد منظوراً، لا هنا، ولا هناك.

قلت: ليس هذا انعكاساً لأحدهما الآخر.

قلت: كلٌّ منهما قائم لا يريم. وكل منهما مخايَلةٌ، خَتْل.

الشهيد الروماني كان قد ضرب الحية العظيمة على شطّ النهر، تحت سور المدينة، وماء النهر كان يتدفّق دماً. الحية العملاقة تنتظرني وتواجهني بعينٍ لا تطرف. أمواج الدم شربتها الأرض، سدى، هدراً، مضيَّعة.

قلت: لماذا أقول قولي للمياه المنصبّة؟ شفتا المياه لا تحفظان القول.

قلت: كنت أريد المعرفة. كنت أريد الحب. كنت أريد العدل.

سمعته، من داخل عمق المرآة، دون صوت: هذا أوان المَحاق. ومطلق الغيبة.

قلت: أشواقُ مرايا الوجود.

قال: وجدانُك إياها فقدانٌ مستديم. الوجود نهاية. أما هنا، والآن، فما من نهاية، ولا من بداية.

استدارت إليّ فجأة. وانحدرت الملاية عن كتفيها قليلاً. كان فستانها معلّقاً بحمّالتين سوداوين، تلمعان، وكانت سمراء، مبتلّة اللحم، رقراقة، تمدّ لي أصابعها المكتنزة الواضحة المفاصل.

أمامي، أيقونةٌ طويلة مشعّة، ألوانها فضيّة ذهبيّة، على خشبٍ شفاف فيه شقوق لا تُرَى. النور يصعد إليها من شموع غُير منظورة، يغذوها الزيت المتقطِّر من عظام صدري. وكانت تغدق عليّ معرفةً لا

حدَّ لها، وتحجرني عنها في وقت معـاً. وكنت أريدهـا الشهوة والمعـرفة معاً. وأدركت مدى تعثري وقلّة حيلتي.

قلت: طوّحني الحلم، وتخبّطتُ خلف الأخيلة، يـداي خـاويتـان وروحي قاحلةٌ وسخريتي ملء آذاني.

لكنهـا كانت تعـطيني، بحسابٍ أو بغـير حساب سـواء. أعطيتهـا مجدي وتسبيحي.

ورأيت أنها محبوسة داخل المرآة. محاصَرة. الإطار المـذهّب القديم يحدّدها، وحدها، وهي بؤرته.

قلت: أهي تتحدّى الزوال؟ أهي تقف في الدوام؟

قلت: طلبتِ مني روحي يا نور عيني، وروحي لكِ.

كـانت الحدود قـاطعة. مـا في داخلها مُـرَكَّز سـاطـعُ النـور يؤكِّـد تعيُّنَها، ويثبته.

وفي هذا الداخل كان تغيُّرها هو نفسه وحدانيتها.

كانت تناديني بكلمات المحبّة والحنو، وبذاءات الشهوة معـاً، داعرةً وواقعة حباً، تـدعوني، بغـوايةٍ لا أقـاومها، إلى تخـطِّي عتبـةٍ قـاتِـلٍ عبورها. ولم تكن المقتلة ما يُثنيني.

قلت: «نفسي ليست ثمينة عليّ». ولكن الخط الفاصل حادٌ ورفيع مثل سن الشفرة وعميقٌ مثل هوّة لا قرار لها. ومجـاهدتُـه تبدو محُـالاً. أمدّ إليها يدي فلا تبلغ شيئاً.

ومع تموّج جسدها اللدن، وتضرّج الشفتين بالدم، وعمق الكحل عـلى العينين النجـلاوين الضاربتـين، لم أجد حـرارة ولا أدنى دفء. كـانت في داخل المـرآة، ليس لها مـادة، مع تجسّـدها. لم يكن هنـاك

معي إلّا خواء هذا الداخل البريء من كل عضوية، كان ملمس فمها المفتوح بارداً ومثيراً، أنفاسها متتابعة مخطوفة تحت شفتيّ، وبين ذراعيّ استحالةُ التلامس مع أنها كانت تلتصق بجسمي المتفض. كأنني أواجهها لا أعانقها، كأنها شيءٌ لا يُنال قط. هي في مكان آخر، في موقعٍ لا يصل إليه أحد قط. وهي مع ذلك حميمةٌ ومتقدة بالشهوة والمحبة معاً. لم تكن امرأةً، بل كانت مطلق المرأة، تتضرَّع وتتسلَّط، تئن وتشكو وتتطلَّب، خادعة وآمرة لاراد لها. طفلتي وغانيتي الشبِقة بالحب.

اشتعلتُ فجأة، وقذفتُ كما يقذف المشنوق لحظة إطباق الحبل على العنق.

أوقفني داخل المرآة وقال: ومع كل المعرفة، فما من عرفان لك قط. لأنك بلا إيمان.

وقال: وُجودُك داخلٌ مُخايِل. فما من وجود.

قلت: إلاَّ الحب.. إلاَّ الحب. وحدَه الحب يحمل وهَمْ الوجود.

أمَّا هو فقد كان يضرب البالطو ضرباتٍ خفيفةً بعصاه الأبنوس اللامعة، على وتيرة منتظمة، مع ظلِ ابتسامةٍ لا تكاد تُرى، وكان ـ تقريباً ـ حانياً وعطوفاً. عيناه ثلجيتان بنظرة مسدَّدة إليَّ باستمرار: ألم تكن تريد الحب؟

قلت: وأردتُ المعرفة. وأردت العدل. وأردت الحرية.

قال: والصبا المقيم؟

قلت: كنت موقناً أنني سأموت قبل العشرين.

وقلت: قبل كل شيء أردتُ الإيمان. عرفتهُ فهل فقدتهُ إلى الأبد؟

قال: السؤال سؤالك. والباب موصد، بإرادتك.

فلم أجرؤ ـ وهل ترفعت ـ أن أقول: لا. الإرادة مطلقة.

ألم يقل شيخنا جلال الدين، «إن غير العاشق، وحده، يرى نفسه في مرآة الماء.»

في حلم المـاء، في مـاء الحلم، صـورة الـوجـود هي استحـالـة الوجود. الباطنُ وحده هو مُخايَلة المتعينِّ يُحيق به العَـدَم. أمّا العـاشقُ الحقُّ فلا يرى في المرآة إلاّ الفناء.

قلت: لا وجود عند ظهور هذه السطوة.

كان جرس الكنيسة يصلصل مليئاً وقوي الـرنين، ويقـرع تجويف السماء النحاسي بـدقّـات تُلقى كتـلاً صمّاء تغـوص في روحي وتخبط القاع.

أحسست أن أطراف أصابعي تتوتّر وترتعش وكأنما ينطلق منها شَرَر متعـاقب لا أراه، يدي ممـدودة حتى آخرهـا، هي وحدهـا ضارعـة، مستقلّة عني، تخترق حاجزاً لا يلين لا يهتزّ لا ينفتح إلاّ بمقدار نفاذ أصابعي منه. ثم سقطت الأصـابع، مبتـورةً من جذورها. ورأيتها بهـدوء، بما يشبه اللامبالاة تنفصل عني، كأنها لم تكن تمتّ لي بصلةٍ يوماً.

وأحسست المرآة تشطرني وعرفت أنني أتلاشى، ولم أكن فـزِعاً بـل كنت مطمئناً وراضياً، وقلت: وليس عندي من قول.

١٩٨٩/٧/٢٤

من غير إجابة

«لَبْسٌ غير محلول»

هذه حكاية خضّبتُها بدمٍ قديم، هبّت عليها أنفاس النار اللافحة مع سكراتِ عشقٍ بائد.

كان موعد درس الرسم يزعجني، الثالثة بعد الظهر تماماً كل يومَيْ اثنين وخميس. كان معنى ذلك أن أخلص بالكاد من مكتب الترجمة وأسلّم على الخواجة ساسون، وأقطع شارع سعد زغلول صاعداً حتى محل بنيامين فأخطف سندوتشين: فول، وفلافل، آكل في الطريق الجانبي الذي تقع على قمته سينما ماجستيك ويحفّه السور الطويل الذي لم أعرف قط ما وراءه، وأنفذ من شارع السلطان حسين، فالنبي دانيال، فشارع فؤاد، وقبل حلواني بورد وأعبر إلى الرصيف المقابل، وأدخل إلى حارة واسعة وقصيرة، فيها البيت العريض المنخفض.

السلالم خشبية تتأرجح وتئزّ تحت قدمي، وعليها دائماً تراب خفيف، واطئة مريحة تدور في الحوش الكبير المدكوك بالحجر الأبيض الذي نعّمته السنوات، ويغطيه سقف عال زجاجي مثلّث الأضلاع وقد بهتت ألوان الألواح الزجاجية وتحوّلت الصفرة إلى صُهبة فاتحة، والزرقة إلى بنفسجيٍّ كامد، والضوء يتقطّر منها نزراً في حمرة مكتومة.

قلت: ألوان الصبا، ما أشد قتامتها، وعنفوان نذيرها.

كنا أربعة في الدرس عند المايسترو أنطونيوني. أنا، وأحمد عزمي مدرّس الإنجليزي في المدرسة المرقسية الذي مات في شبابه قبل أن تزدهر موهبته الحوشية، والأخوان مَرَادْلِي: إحسان الذي كان حتى في تلك الأيام مدوّراً سميناً يتسايل شعره على جبينه وضحوكاً مقبلاً على النساء وطِيب الحياة، وإلهام الذي كان موظفاً بمخازن وزارة المعارف العمومية في محرم بك، نحيلاً وأمْيَل إلى السمرة والتأمل والانطواء.

وكنا نأخذ الدرس في الصالة الكبيرة التي حوّلها المايسترو إلى مرسمٍ ومدرسة، واسعة ويتدفّق النور من شبابيكها الزجاجية العالية المطلّة على المنور، وعلى الجانب الآخر أبواب الغرف الخشبية الضخمة المصاريع، مغلقة على أسرارها.

وصلت متأخّراً يومها، فتح لي أحمد عزمي وأشار إليّ خِفية ألاّ أفتح فمي. كان المايسترو يقف على جنب، وبيده عصا طويلة رفيعة يشير بها إلى الموديل العارية.

كانت الموديل تنظر إلى نقطة غير محدّدة، وهي واقفة على كرسي حمام منخفض مدوّر مدهون بالأبيض، أمام الشباك العريض. النهار الخام المصفّى يضيء بوضوحٍ وسطوعٍ جانبها الأيسر، وأنا داخل، كلّه، أمّا جانبها الآخر فيقع في نوعٍ من الظل المنوّر المشع، من انعكاس ضوء الظهر على الحائط الأبيض والأبواب البُنّية الخشب.

نظر إليّ المايسترو نظرة صارمة، وكأنها متواطئة في وقت معاً، وأنا أنسلّ إلى مقعدي المعتاد جنب التليفون الأسود في ركن الاستوديو،

وأفتح كرّاسة الرسم العريضة، وأخرِج قلم الفحم، أحاول أن أشرع في الدرس.

كانت الصالة حارّة.

والمايسترو يمضي في شرحه، بالفرنسية الإيطاليةِ اللكنة والعربية المكسورة معاً، لعبة النور على تشريح الجسم الأنثوي، وهو يدفع بالعصا ناحية الموديل، من غير أن ينظر إليها، دفعاتٍ قصيرةً عصبية كأنه يوشك أن يخز هذا الجسم أو يخترقه.

أشار إلى ظلال الثديين الصغيرين، طريين ومتماسكين في وقتٍ معاً، وكانت الدائرة التي تحيط بالحلمة واسعة وداكنة وفيها هذا التحبيب الدقيق الذي يبدو للعين، في النور القوي، خشناً وسط ملاسة جلد الثديين، لونها أفتح قليلاً من السمرة القمحية للجسم كله. كانت سمرتها غضّة ناعمة ومطفأة، وكأنها متربة قليلاً.

ـ بص كويس Les seins, ronds, consistants، موش جامد، زي الجوافة، موش نازل، موش mous زي.. زي واخد عجينة.. كمان بُصّ... La qualité des ombres، دَا بُصّ كويس فيه.. شوف الـ correspondance بينه وبين الـ pelvis شوف الـ volume بتاعو. عايزين الـ sculpture بتاعو مش بس الألوان..

وكان كلامه عن النِسَب، وعظام الحوض غير واضح لي تماماً، وهو يطعن بعصاه منطقة الظلال الغامضة تحت البطن، كان ردفاها المكتنزان يبدوان كأنهما أثقل مما تحمل الساقان الطويلتان. وكانت نحيلة ولكن بهذا النحول الزائف لأن الجسم ملفوف وكامل التدوير. قلت: لا تزيد عن ثمانية عشرة، أو عشرين، على الأكثر. أنثويتها

واضحة. قلت: هذه ليست بنتاً بل امرأة حقاً، تشهد عليها تقاطيع الجسم الناضجة، ونظرة العينين الخبيرة، الغائبةِ الاهتمام مع ذلك.

ما الذي يحجبني؟

صفاء الرؤية يعوقها ضَرَبَان الدم في عروقي.

كانت مع كل نِسْويّتها تَلطُف عن أن أنقل لها خيالاً، بالقلم الفحم، على ورق الرسم الأبيض.

قلت: هذا الجسم قادرٌ على حنان كبير، وعلى هوس العشق، وتلهّبه.

وكان هذا صحيحاً.

كنت، دون أن أعرف، قد أبحث له مجالي روحي، كلها.

مصادر الحب صامتة.

كان بطنها هضيماً، وفيه من على الجنب ندبة عملية قيصرية واضحة لكنها بشكلٍ ما تزيد استدارته حَبْكاً ووثَاقة، وفيه الخطوط البيضاء الباهتة التي تأتي بعد الحمل، مع انخفاض البطن عند الولادة، والدكنة الكامدة عند التقاء الفخذين المسحوبتين الملفوفتين، وتماسّهما، وتبدو شِعْرتها محلوقة جيِّداً أو منتوفة بالحلاوة، بعناية، لونها أكثر بياضاً من لون البطن، وربوة الفرج مليئة ومرتفعة.

كان جو الاستوديو في ذلك الظهر الأول حمِيماً وبيتيّاً جداً. فُتِح باب غرفةٍ لمحتها واسعة ومزدحمة بالسرير والمرايا والشِلَت، وخرجت امرأة أنطونيوني، فارعة الطول وجسيمة وملفوفة في روب أسود عليه نقوش وورودٍ حمراء صينيّة متوحشة التطريز، ومرقت بجانبي داخلة إلى الحمّام الذي أعرف أنه طويل وحيطانه مبلّطة بالقاشاني حتى السقف

وفيه بانيو هائل له أقدام لبؤة من النحاس الأصفر المسودّ مفلطحة وناتئة المخالب.

قلت: لا تَرُدّ هواك، لا تنأَ بجانبك عنه. ولو لم تعرفه.

قلت: ليس للهوى من سببٍ ينطق به.

قلت: حبي في دخيلتي يحتج لكِ عليّ، ويحكم لكِ عليّ.

كانت وداد تعمل لي فنجان قهوة، على السبرتاية، في غرفتها. وكانت رائحة السمك تصل إليّ من النافذة الوحيدة الموارية الخشب التي تقع مباشرة فوق السرير بأعمدته الأربعة السوداء. كانت تعطي لي ظهرها وهي أمام مائدة المطبخ المكسوّة بورق جرائد مقصوص على أشكال هندسية الأطراف، وعليها الحلل، ووابور الجاز، وفوقها المطبقية الخشب ورفّ عليه الأكواب والفناجين، مرصوصة على نفس ورق الجرائد بنفس القصقصة الهندسية بمثلّثات ودوائر مفرغة.

كنت جالساً على الكنبة الصُلبة المرتّبة، وأمها العجوز جالسة على الأرض، جسمها كتل مكوّمة وكانت لا تكاد ترى، وتحكي لي عن تعبها في مستشفى الملك فؤاد لعلاج عينيها. أمّا الرضيع فقد كان نائماً على السرير، تحت النافذة، أطرافه رفيعة وهشة.

جلست وداد على الأرض، تحت قدميّ، بجانب أمها:

ـ يا خويا أهي عيشة وآخرتها التُربة. قطيعة تِقطع دي عيشة وسنينها. يعني جالنا إيه من دي العيشة الهباب؟ طب دَحْنا من ساعة ما عرفنا جوزي مقصوف الرقبة واحنا ما شفناش ساعة راحة، وآخرة المَتَمّة تقولشي الأرض انخسفت به. ولا نعرفو له ريحة جُرّة. قال إيه اللي رماك على المرّ قال اللي أمرّ منه. دا برضو لحم الواحدة عزيز

عليهـا. بس حنعملوا إيه؟ أهِي قسمـة ونصيب. يا رب تـوب علينـا بقى يا رب. يا خويا دي الواحدة طهقت م النيلة اللي احنا فيهـا. آه يا غلبي يا مراري.

كان صوتها عميقاً ومشروخاً قليلاً.

ـ عـادِيك يـا خويـا، آل عـين مـا شـافت قلب مـا شـال، أنـا في عـرضك يـا خويـا، أبـوس رجلك، استـر علـيّ. مـا تسيبنيش. دي الدِزْوَة حلوة.

كان في صوتها الآن، وفي نظرة عينيها المرفوعتين إليّ، قهرٌ كامـل، وطمـع مفهوم، ومـبرَّر. وكانت محـاجّتي لنفسي في ذلك غـير مجديـة، وأنـانية أيضـاً. وكم ندمت بعـد ذلك عـلى أنني تركت لهـا الشكـوى وضراعتها لم أسمعها.

اللبـؤة أنثوية الجلسة تحت قدميّ، شعرهـا الأكرت ملمـوم بشريط أزرق، وعينـاها مفـترستان الآن. الهُـولة طفليّـة وأمّ الوجـود، وديعة خاضعة وكامنة الضراوة، وحشيتها محسوسة، ناعمة ومطلوبة. وكانت تـرضع الـولد من ثـديٍ طريّ غـير متهدِّل، تضغط عليـه بيد رفيقـة ومثيرة، أعرفه لأنني رسمته بـالفحم وبالـزيت وبكل الألـوان، داعبته وتحسَّسته ووزنته وعركته بيدي، ولعقت بلله استطعمت حلاوته.

لا. لم أكن لأختـار الخـالص المصفَّى من شَعَث اللحم والـدم. لم أكن لأريد الموسيقى البحتة. ما المـوسيقى؟ كنت أوثِر حنـانَ القلب، وعنفَ شراسته.

كانت أمها راقـدة على الأرض، وكـان الصغير ينـام بين أمـه وبين الجدار، وكان السرير يحملنا إلى محبات وشهوات لُجّيّة لا شاطىء لها.

وعرامة الصبا المحرِقة لا تخبو حتى في حضور المحارم والجسم سكـران بوجدٍ غير عاقلٍ. أمَّا الـرثاثـة فقد كـانت تتلاشى، لا تـوجد، لم تكن موجودة، أصلاً، أمام جمالٍ خاص، وحرارةٍ مدمِّرة.

في هذا الدنّ كانت خمر حنوها عتيقة، وجديدة عليّ، معـاً. لاذعة الطعم وسلِسة.

وكان حنوها معي ـ وطَمَعها ـ لا مقياس لهما.

كنت أطلب رقم التليفون، ويأتيني الرنين المتصـل، في الليل، من غـير إجـابـة. وكـان اليـأس يحيط بليـلي ولكني لا أني أطلب الـرقم، بإصرار، باستمرار. فجأة ردَّت عليّ امرأة، كانت شجيّة الصوت وفيه بحّة وخشونة أنثوية، نافـدة الصبر، وسـألتني، بالفـرنسية: من أنـا؟ مـاذا أريد؟ لم أعـرف أن أردّ. لم أعرف. فسـألت: ما الـرقم الـذي تـطلب؟ من أنت؟ نسيت الرقم. حـاولت أن أتذكَّـر. لم أستـطع أن أعرف. لم أرد. سمعتها تقول بالفرنسية: يـا إلهي. يا إلهي. ثم عـاد الرنينُ المتصل. كأن لم يكن هناك قط ردّ. ولن يكون.

قلت: أعطِ يـدَكَ من يثبّتك في سقـوطك، وينجّيـك من هُلْكك، ويُخلّصك من أوهامك.

قلت: مَنْ؟ يدي ممدودة.

قلت: هَتْكُ الأستار. مجانبةُ الأسرار.

قلت: الهوى هُلْكٌ ووهْمٌ وسقوط؟

لم أعرف إلّا يوم الإثنين التالي.

قـال لي إحسـان مَـرَاذْلي إن الإسعـاف نقلتهـا يـوم الجمعـة إلى المستشفى الميري، على النَفَس الأخير. قال إن-وابور الغاز هبّ فيهـا،

وأمسكت بها النار، وإن أمهـا لم تصرخ إلاّ بعد فـوات أوان النجدة. قال هل تعرف أن لها ابناً صغيراً لا أحد يعرف مـاذا يفعلون به؟ وأن البوليس يبحث عن زوجها، في قضية آداب، وأنه هارب من شهور؟

سألته بلهفةٍ، وشكٍ كيف عرف، قال: هكذا، بالصدفة، كنت أمرّ عليها في غرفتها في رأس التين. فلم أُعنَ بتحقيق حكايته.

كانت الغرفة الضيِّقة مشتعلةً بجسمهـا. كنت أعرف أنها هي التي أقدمت على النار.

كيف أمكن أنها طيّبتْ النارَ لجسمها؟

كيف احتملت أن تخلع عنهـا، نهائياً، كـلَّ أوصافهـا، وكل لَبْسٍ فيها؟

فوران السر من حرقةِ قهْرٍ أم من ضِيقةِ مأزق؟

قلت: أي ثقـلٍ من الجريمـة كـان في طـاقتهـا أن تحمله، عـاقبت نفسها عليه. العقابُ الأخير. كيف أقدمتْ عليه؟ هذه القسوة التي لا تـطاق، الحرق والتشـويه، بـلا رجعـة. أحَـدُّ الانتقـام الكـامـل من الـذات؟ تعـذيبٌ طقـوسيٌّ لا تـردّد فيـه، تصميمٌ لا أفهم مـدى صراحته، والنار ترعى لحمها.

إدانةٌ لا تنقض ولا تُردّ.

لماذا؟ لماذا؟

السؤال قوته لا تُحتَمل.

١٩٨٩/٧/٢٩

مخلوقات ملكة عبد الملاك

«الحلم حقيقةٌ ممكنة»

كان طريق المعادي على النيل يبدو موحشاً، في أول المساء.

النخل السامق الرشيق مائل على الرصيف وجدائل سَعَفه تنوس تحت جدران البيوت المغلقة. . دغلات الأشجار متكاتفة تحت سماءٍ عميقة الزرقةِ، فيها بقية ضوء النهار، وسحاب ينزلق ببطء.

أضواء النيون تنعكس من أجزاخانة وعيون مصابيح الطريق بيضاء مسدودة يقع نورها الذي لا يفيد أحداً على كشك سجاير وكتب ومجلات، به لمبة جاز.

السيارات تنساب على الإسفلت وثيرة صامتة.

كانت الأصوات غير واضحة ولكنها مقلقة تتجاوب من بعيد، والطيور الصُلبة تنتقل من شجرة إلى أخرى، محدّدةً قاطعةَ الجسوم، بلا صوت. وكانت سيقان النخل السلطاني وسيقان النساء، بيضاء، دافئة، موحية.

أمامي النيل واسع ومنخفض وغامض.

رأيت الجزيرة في وسط المجرى العريض، عليها أعشاب وطحالب ملحية الشكل، حولها المياه الساكنة مخضرّة قليلاً. شطوط الجزيرة

المتعرِّجة تغرق وتطفو من بِركة النيل الهادئة السطح.

تأتيني فجأة، من بعيد، طلقات المدافع، دقّاتها ضخمة مجوّفة الرنين تقرع القلب، تتلوها رَشّات متلاحقة من رصاص الآليات الحادّة. والسماء المغطّاة الآن بغيام رمادي، تقطعها سطوعاتُ مُنْشَعِبة حمراء وخضراء من قنابل الاستكشاف الضوئية الصامتة الاشتعال، تظل متوقّدةً لحظات وتنطفىء ببطء.

كان يجري على الطريق.. جلبابه الأبيض القصير يضربه هواء الجري على منتصف ساقيه، وقد شهر مسدسه السميك منطفىء اللون على امتداد ذراعه، ولحيته طويلة قاتمة السواد هائشة حول وجهه الأبيض السمين، مَرَّ أمامي مباشرة. رأيت أنه قد حفَّ شاربَه. أثَرُ زرقة الحلاقة الوثيقة حول فمه.

سقط بوجهه على بُعد خطوات، دون أدنى حركة أو صرخة، على حشائش الرصيف التي كانت قد توحّشت وطالت تحت شجرة التين البنغالي الجسيمة، الهائلة.

كانت سيارة تاكسي واقفة وخالية تحت مظلةٍ واسعة منخفضة مصنوعة من القش البني الباهت، والمحرّك يدور ويئزّ بانتظام.

في عتمة أول المساء رأيت هذه المخلوقات الشمعية، مائلة على جنبها، ثابتة الجوارح، تطير تحت السحاب الذي بدأ يشفّ الآن من نور القمر المقطوع، تحملها ريح خفيفة. ومن بينها فينوس. حيّة، صغيرة القدّ، ينبض جسدها، شمعية التقاطيع وجهها أعرفه، وأحبّه، كم لثمته. كم سقطت عليه دموعي، وقطرات مَنِيّي. كانت بالضبط تشبه التمثال لكنها لدنة القوام. ضوءٌ كاوٍ، كأنه برقَ الفلاش

من كاميرا ضخمة غير مرئية، وقع عليها وانثال على جانب وجهها، وظلَّ ساطعاً. أحرق الضوء جانباً من شعرها المعقوص الملفوف بحناية، وبدأ وجهها يذوب، وقطرات الشمع الثقيلة تسقط بينما الريح ما زالت ترتفع بها بهدوء، وفي عينيها نظرة غائبة.

رائحة من الوجد، وحُرقته.

طاحت تلك الإشارات. أفلتت من يدي.

بلبلةٌ لما كان قد سَكَن من طائر الأشواق.

هاجت الآن روحي. ما من مثابٍ أبداً لهذا القلق. لا تخبو حَدَمةُ نارِ النزوع، بلا منال.

والحلم صامت. مكنون.

انقضَّ عليَّ. طائر داكن الخضرة كبير الجناحين ينزل إليَّ من علٍ، ريشه كريش ببغاء هائل، أعرف أنه عاقل وأنه ناطق وأنه مُدركي. ولكن الخَرَس مقامه. ومقامي.

ثم لبدَ أمامي معلقاً من مخالبه القوية المسنَّنة ومشبوحاً تحت الشجرة الضخمة، مدلى بجانب الجذور الخشبية النازلة من بين حرشة الأغصان الأثيثة، صُلبةً تتلوَّى حول بعضها بعضاً لم تصل للأرض بعد، وقويةً متينة العضل وصلت إلى التربة الأم ونفذت من الجثة البيضاء الراقدة على وجهها منذ زمان بعيد أعرف أنها دافئة ما تزال.

كان الطير الكبير قاتماً في نور القمر الذي تبدّد الآن وراء سحاب أبيض مقطوع ينزع لونه إلى الرمادي الفاتح. وكان مقلوباً ورأسه ساقط إلى تحت كخفّاش ضخم له منقار طويل معقوف الحافة، حادّ الطرف.

وكانت رئتاه متدليتين، من صدره المفتوح، بجانب جسمه الساكن الململموم الريش، تنبضان، لونها داكن وغشاؤهما لامع وأملس، والقلب يضخ بينهما، مكشوفاً في الهواء، صغيراً بشكل لافت للنظر وغريب.

كان مستكناً ومتربّصاً في وسط خضرة الأغصان المتراكبة المنبعجة المفاصل، والأوراق الملساء الجرداء، وكريّات الثمار الصغيرة الحمراء القرمزيّة المتورّمة بعصارتها.

ورأيت أن منقاره يضرب بانتظام وإصرار في يد مَلَكَة عبد الملاك، كفّها مفتوح ومنبسط كأنه يأكل من يدها، وهي تنظر إليه، لا تضنّ بشيء.

كنت أعرف مَلَكَة عبد الملاك، من المطبعة.

كانت تحفظ أقراص الرصاص وهي ما زالت ساخنة ذائبة تقريباً، حتى تجمد، تضعها في خزانة مفتوحة لها أرفف متقاطعة. والحروف البارزة، المعكوسة على سبائك الرصاص فيها السجل الكامل لكل شيء، كأنها اللوح المحفوظ. وكانت مَلَكَة عبد الملاك، دائماً، تحيط بها، حيثما كانت، بقايا رصاص المطبعة وشظيّاته الرفيعة المشطوفة بيضاء البطن، وحولها شمع الفوتوتيب الملفوف في اسطوانات كبيرة مسنودة إلى حيطان المطبعة وإلى خزانة الأرفف الخشبية وإلى جوانب ماكينات اللينوتيب العملاقة، المتحرِّكة التروس والصفوف.

كانت بشرتها زيتية ناعمة، وشعرها، في وسط تشابك المطبعة وازدحامها، طويلٌ وقويٌ حالك السواد. وعندما تتكلَّم تحرِّك رأسها فيهتزّ شعرها كأنما تهبّ به أنفاسٌ لافحة، وينزل بكتله الناعمة على

كتفيها ثم يرتفع، له حفيف مسموع.

وكنت أذهب إليها كلما اضطررت إلى البحث عن إعلانات قديمة، أو بطاقات معلومات بائدة، أو تفاصيل الاحتفالات بمناسبات منسية.

كانت مَلَكَة عبد الملاك قمحية اللون وبضّة، مليئةً كالموج، وجهها المدوّر كامل الاستدارة ودائم التقلّب، له أشكال متغيّرة في نور المطبعة الشحيح أو المتوهّج.

ومع جسدها الطيِّع، المنيع، كان حنوّها عليّ راسخاً.

وكنت أرى صدرها قادراً وشامخاً، والثديين في السوتيان المحبوك، يعطيان حساً بالنضج الراضي المرتاح.

قالت لي: أنت المتقلِّب الذي تطير به الأهواء والأشياء. أما أنا - كما ترى - فإني ثابتة. سوف تجدني دائماً. هنا.

وسوف تقول لي: أنا، في أي مكان، في أي وقت، لَك، مِلكك. فهل يمكن أن تقول لي: تعالي، ولا أجيء؟

أين ملاكي الغَضوب شاهر السيف على مخلوقات الشوق؟

أحسست الريح تشتدّ قليلاً، وضوء القمر يغلب السحاب.

رست، أمامي مباشرة على الكورنيش، آخرُ مركبٍ طالعة، إما أن ألحق بها أو أن يضيع كل شيء.

نزلتُ بسرعة على سلالم مزدوجة متقابلة، صاعدة وهابطة، وَشيشُ الكهرباء مسموع وقوتها محسوسة، وكان الناس كثيرين حولي والأنوار من سقف النفق متتابعة ومحدّدة ومجسّمة، وكان النفق يدخل بي ويغوص في قلب صخر الجبل، منيراً جداً ومدوّراً ولامع الجدران،

ثم وجدت أن السلالم المتحـرِّكة قـد خرجت بي إلى النيـل، والنفق ما زال يغـوص، يشقّ الموج الـذي أحسسته يـرتطم بـالجدران النـاصعة المبلّطة، ارتطاماً هيّناً.

لكن المـركب مـا زال بعيـداً، ومهـما جهـدت في الجـري صـاعـداً ونـازلاً على الـدرجات الحـديديـة المضلَّعة أجـد نفسي ما زلت أُراوح الخطو في موقعي.

مشتاقٌ على الدوام، من غير أشواق.

حبي طلب دائم، ومخافةُ انقطاع. بلا هوادة.

والقلب جزيرة محاصَرة.

فرغت من الحنين إلى الصبوات. فرغت من التبرم شوقـاً، بارحْتُ أشجان الصبابة والحنان. بارَحْتُها.

دورة كـاملة. أخرج من دَرَج النفق المتحـرِّك لأجد نفسي مـا زلت تحت شجرة التين البنغالي، في متناول منقار الطائر الأخضر الضخم.

وقد اختفت مَلَكَة عبد الملاك.

بـادرتُ بأن أسلمت لـطائرِ المستحيـل نفسي، دون مطالَبـة، دون لجج. وليس هذا كسبي ولا دأبي.

مدّ إليَّ منقاره. وأخذني. أطير معه. في باطني، في باطنه.

معراجي عَبْر عصَفِ السماوات العُلى.

حتى غشي بصري الضوءُ الباهر الذي لا مثيـل له. كـانت قناديـل الزيت السماوي مشعّـة كوجـوه الملائكـة، ولا حصر لها، تمـلأ السماء والأرض وما بينهما، ساطعةً من الأزل.

هكذا يأوي العاشق إلى ما بين قدمي العرش الوهّاج.

احترق قلبي بالنور، وكان جانبه الأيمن يسقط عنِّي، مصهوراً.

النور ظلمةٌ تكتنف الروح، كاملة، بلا رحمة.

وليس هناك إلاَّ مخلوقات الأشواق، متجسّمة، تطير حواليَّ، تذوب وتتجدَّد بلا انقطاع، تملأ الداخلَ والخارج، وحدها.

١٩٨٩/٨/٤

بيت قديم

«الزمان خيالات مقطوعة»

ما زلت أراني أسير في الصباح الباكر الساكن، تحت سماء لؤلؤيّة، إلى البيت القديم.

أسير إليه، وأنا أحمل في داخلي شوقاً مُمِضّاً وعميقاً، وحسّاً بانتماء لا ينفصم إلى هذا البيت، ولوعة لفقدانه.

أعرف أنني لن أسير إليه أبداً، لن أدخله مرّة أخرى، أبداً.

خطواتي ـ في هدوء الحوش، بعد أن أغلق خلفي باب الشارع الكبير، تحت الجمّيزة العتيقة ـ لن تحدث.

أخطوها، مع ذلك، على الدوام، من غير وصول.

أعبر عتبة الباب الرخاميّة، حافتها الناعمة غاصت في الأرض، عليها نقوش كتابات هيروغيليفيّة كادت تمّحي، ماثلة مع ذلك تستجلب البركة تستصرخ الذِكَر.

أعرف أنه على هذه العتبة الخفية مرَّ من قبلي بيبي مارتان ومحمد ناجي، راغب عياد وكامل التلمساني، جورج حنين ورمسيس يونان، موسكاتيلي وسَنَد بسطا، كاترين سُرْسُق وبولا العلايلي، وغيرهم ممن لا اسم لهم، هؤلاء الذين عذبتهم أرواحهم وطوّحت بجسومهم النزوات والمعاشق، ومفازع مجرّد الوجود، وأنه هنا حُسِمت مصائر أو

عُلّقت إلى الأبد دون قرار، رُسمت أقدار وتجسَّدت شطحات شِعْر هذا البلد.

لكن الحوش كان دائماً خالياً، من غير وحشة، مكنوناً داخل الحيطان السميكة السامقة، بأحجارها التي تضرب إلى الرمادي الفاتح، لون قديم، نظيف، تظلّله أشجار كافور وجزورينا عفية وارفة، تنفي عنه فجأة كل ضجة القاهرة، وتضفي عليه سكوناً، وسلاماً لم أجده في أي مكان آخر، ربما لأنه كان يُعدُّني لمحبةٍ، ورضى، لم أجدهما في أي مكان آخر.

أحجار السلالم العالية الدرجات، محصورة بين حائطين في بئر السلم الضيِّقة، تبشّرني، كأنني أسمع من ورائها طنين حياةٍ مليئة بالقوة والوعود.

وعندما ينفتح الباب المحكم الوثاق، أخيراً، تهبّ عليّ أنفاس البيت الهادىء، حميمةً وضافية.

ما زال أعزّ مواقعي.

أعود إليه - وإليها - بلا انقطاع. وكأنها لم تبارحه قط، ولم أبارحها.

كل الدراما، كل الحب، كل النشوات، كل سكرات الجسد وكل أمجاد الروح، ما زالت، كلها فعّالة.

ناداني قلبي إليكِ، لبيّته لما ناداني. . .

وهل تصورتِ لحظة أنه قد يمرّ يوم من غير اهتزاز الحنين، والحنان؟

أي يوم؟

نداء البيت القديم، نداء القلب القديم.

في القاعة الوسطانيّة الفسيحة، حجر حيطانها ما زال ببياض لحمه المبريّ، دون طلاء، ودون ملاط، أرى لوحات السجاجيد المعلّقة على الحائط، منسوجةً بالخط الفارسيّ والكوفي، تنطق بأشعار الحب والآيات، تهزّها نسمات غير محسوسة فتنوس برفق على جسم الحيطان. الفوانيس العربي النحاس يتقطّر منها ضوء المصابيح الكهربائيّة الصغيرة بيضاء الشموع عبر ألواح الزجاج الأصفر السداسية الشكل. يسيل هذا الضوء بمياهه الساجية ما زالت حتى الآن دافئة مثيرة تجعلني أنتصب فجأة، أنزل معها إلى السجاجيد العميقة الوَبَرة المفروشة على بلاطات الرخام، طالما صنعنا الحب فيها، وتقلّبنا في قبضة جنونه وعربدة سكراته، بينما نافذة المشربية العريضة تعطينا جمال العالم، ونوره، وتحجب ضراوته.

قلت: لا شيء، لا الزمن، لا النسيان، لا الجسم الذي يناله الوهن بقادرٍ على أن يأخذ ذلك الذي حدث. إنه باق، أبداً.

قالت: يا ليت هذا مجرَّد تقرير رومانسي. الزمن يمحو كل شيء، كيف نصون حبنا من سطوة الزمن.

قلت: أبداً لن يمضي. ليس فقط لأنه موضع إعزازٍ خاص، بل لأنه يقوم في الروح، باستمرار، من جديد.

قالت: كم من أشياء تحدث، ثم تؤخذ في قبضة الانتزاع، تذهب كأنها لم تحدث قط. فلماذا يستعصي ذلك وحده على المضيِّ، والغيبة.

قلت: لأنه ـ مهما تقطّعت أمشاجه ـ يَحيا دائماً من جديد. ويُحيَى دائماً من جديد.

فتحتُ الباب بمفاتيحها، ودخلت. أحسست البيت مستوحشاً،

وكـانت ظلمته فـادحة. قلت: «لا بـأس. سوف تعـود بعد قليـل».
كنت في المدخل الذي أعرف أنه يفتح على القاعة الوسطانيّة، ويُفضي
من اليسـار إلى غرفـة النوم. الأنـوار فجأة لا تضيء. حسّ الـوحشـة
يعضّ قلبي، موجعاً، لا يبرأ. أبحث عن أزرار النور، لا أجدها، لا
أجد شيئاً. كل شيْء ينكرني. أسير خطواتي، لا أرى أمـامي، ذراعاي
ممدودتان، ومع أن الظلمـة مطبقـة أغمض عينيّ، كأنني بـإرادتي أنفي
الظلمة. أين أزرار النور؟ هل هي فاسدة، نالها العـطب، ثمار عـطنة
تحلّلت وسقطت؟ أين هي؟

أحسّ نفسي أشهق، وقعت يـدي أخيراً عـلى زر النور الـذي يشبـه
اسطوانةً صغيرة جداً من النـوع القديم الـذي تضغطه إلى الـداخل.
النور في الفوانيس الكبيرة يشتعل، عـلى غير انتـظار، يعطي بصيصـاً
ضئيلاً مصفرًّاً، يهتزّ، ويخفت ثم ينطفىء نهائياً بصوتٍ كأن فيه صدمة
خبطة واحدة أخيرة.

أجـد الهواء ينـدفع إليّ، من أين؟ من النـافـذة، من البـاب، من
السقف؟ لا أعرف. الحاكتة تهتزّ، تتطوح حولي، وترتفع تحت هبـوب
الهواء المتضارب التيّـارات، كأنمـا بفعل أيـدٍ غير ملمـوسة. هُنـا قوى
حيّة، وغاضبة، قد خلت لها الساحة، حضورهـا لا يرد، وعملهـا لا
يُغَضّ، ولفْح أنفاسها فيه نيّة غير معروفة.

أرى في الـظلمة المتقلّبـة حولي شيئـاً أبيض، غريبـاً، أحسّه أثقـل
قليـلاً من الضباب وأخفّ قـواماً من سحـابـه، بـارد الملمس، ينحني
عليّ، ويلفّني.

أنادي بكل طاقتي. كأنما ندائي ترتجّ له السماء والأرض.

لا ينِدّ عني صوت.

شفتاكِ. شفتاكِ في الزمن الآخر، تبدآن باردتين رطبتين، ملمسهما مُنعش وطري. ثم ينالهما ـ معي ـ هوس العشق. فيهما، تحت شفتيّ، كلُّ حياتهما الخاصة، كل حياتهما المستقلّة، كل التنزي والتقلّب، كل الحب، كل المَوج والتلمّس، كل التلاصق رقيقاً وملهوفاً ريّاناً وجوّاساً، وادِعاً ومعابِثاً، شرساً وراضياً وناعماً، مستفزاً داعياً ومستسلماً.

لماذا يا حبيبتي لم أعرف هذه الحياة وتلك الحرارة في شفتيك، عند حلول الزمن الأخير؟

بينما أنت في حضني قد اختُزِل الكونُ فيك، والزمان.

رسالةُ شوقٍ في زجاجةٍ مختومة مرميٍّ بها في اليمّ، هل ترتفع بها الأمواج وتنخفض بلا انتهاء، غيرِ مفضوضة، لا تعود، أبداً، بردّ؟

وكالمعتاد تظلّ الأشواق صَمُوتاً. من جانب أو من آخر؟

كلُّ الكلام أبداً بدون كلمات.

جسم البيت القديم جسم الحب القديم يحيط بي من كل جانب، وعيون الحب النجلاء تهاجمني وتطعنني، لا تطرف، لا تتوقّف.

كان رخام جسدك الخمري الحار، في سمرة الغروب، معجوناً بالحب والألم الذي لا يريم. جماله قهريّ شامخ، وما أطوعه بين ذراعي، ما أنعم لدونته.

قلتِ لي: وقائع الحياة ليست في شعرها. الشعر في النهاية لا يقين فيه، ولا اطمئنان له.

بصوتك المدرَّب المتقَن، وثيراً سلساً ومشحوناً بطاقة جنسية سيّالة.

قلتُ لكِ: هو كل اليقين. ما دامت الحياة ـ كل الحياة ـ سؤالاً ليس له من مجيب.

وأنا على مشارف الحافة، في صباح النهاية الذي لا يَحُول نوُره الغريب، ما زلت أقول: لماذا سار كل شيء على هذا النحو؟ لماذا؟

ما زلت أريدك. وحدَكِ أريدك. في الشِعْر ليس في ركام الوقائع. كأن الشعر هو الواقع الوحيد عندي. فهل استئثاري بكِ فيه، أنانية، ولَجَج الطفولة؟ أم هـو بذلٌ نهائيّ لا يمكن أن يُنتقَص ولا أن يُنقَص. ما زال الحب يفيض من قلبي، كالنزيف. أيظلّ يسقط على تراب هذه العتبة المدفونة في الأرض؟ أين زهرة الدم الحمراء وحشية الحمرة المتوقّدة بالشوق.

كانت القبّة الضخمة أمامنا، ماثلةً عبر المشربية، اسودّت بفعل الزمن، تدور بها كتابات بارزة من الحجر لا نعرف كيف نقرأها، وبيننا وبينها سطوح بيوت القاهرة القديمة متراكبة متمايلة، تقطعها فتحات المناور المسقوفة بزجاج مترب، رُكِنتْ فيها عِمدان خشب بالية وصفائح صدئة وبقايا دراجات وصناديق وكراتين وأقفاص وقفف منبعجة بالكراكيب، كل مهملات الحياة جفّفتها الشمس وصوّحتها ونظّفتها من كل شعَث لحمها وسوراته، أعشاش الحمام الخشبية يصدر عنها هذا الهديل العميق، حزنه رتيب ممل، مستمرّاً وعنيداً لا يسلّم بنهاية أي شيء.

كان هذا يقيني.

قلتُ: من بين المفازع الكثيرة التي يغصّ بها العمر المضطرب ـ على الرغم مما يبدو على سطحه من رتابة وتمكّن ـ يأخذني رعبُ أنني لن ألتقي بكِ مرة أخرى، أبداً.

قـالت:حسب الشائـع المشهور نحن لا نلتقي مـرّتين أبـداً. العـودة حلم مستحيل بطبيعتـه. كل لقـاء نسيج وحـده، له طعمـه الخاص، حلواً أو مرّاً، وله مقوماته وحده.

قلت: لا، هذا الرعب يقـول لي: «لا، ليس هذا. لن تلتقي بهـا أبداً، بالفعل. أبداً بعد». وعندئذ يُفقدني الهلع كل صواب. وأريـد أن أصرخ بأعلى صوتي: لا. لا. لأْ.

قـالت: اسم الله عليـك من الـرعب والهلع. إذا أردت أن تصرخ اصرخ يا حبيبي، لكن ليس من الرعب والهلع.

فضحكتُ من نفسي، على نفسي، كالمعتاد.

قلت: ومن المفازع القديمـة الأخرى أنـكِ لم تعودي تعـرفينني، لم تعرفيني قط. ولا يهمك هذا على أي حال.

قـالت: وهم التثبيت. وهم العـودة الـدائمـة. لا بـدّ أن تكسر الدائرة.

قلت: ومن ثمّ أعود إلى كلمةٍ قديمة لك ـ هل قلتِ لـك إنني الآن أكنـزها وأحـرزُها، هـذه الكلمات ـ الماسـات التي لكِ، لأنها وهّـاجة وقاطعة معاً؟ ـ عندمـا قلتِ لي: «إنني أحبّك. سـأظلّ دائـماً أحبّك». أمّا أنا فليست بضاعتي كلها إلاّ كلمات.

قالت: أنت طالما. . . طالمـا، ردّدت حتى حدّ الهـوس أن الكلمات لا تعني شيئاً، وحدها. أنا أيضاً قلت هذا كثيراً. لكنه غير حقيقي.

قلت: أحقٌ أنني لم أقدّم إليك إلاّ شِعراً؟

قالت: وهل الشِعر قليل؟

قلت أمـا أنتِ فقد وهبتني سـطوع المجـد، ورهبتـه. وَقْـدةُ الحب الـذي لا يـطاق، وسَـوْرتـه. مـا زلت أتـوجّس حتى من الاقـتراب

بالذكرى من نور هذا المجد، لأنني أعرف أنه لا يُطاق.

كيف احتملت في البيت القديم عبء كل تلك السعادة؟

وكيف أستمِرُّ في احتماله؟

ما جدوى الكلمات، ما جدوى الكلمات، ما جدوى الكلمات، أريدك في حضني أريد أن أعرف حبك، أريد أن أعود إليه، أريد أن أبدأه من جديد كما لم يبدأ قط، أريد جسدَ الموسيقى لحمَها المليء لا صداها ولا ظلّها البعيد.

قلتُ: سوف يأتي الصمت وشيكاً. قريباً جداً.

سوف ينقضي زمان الكلام.

كنت أهمّ الآن بأن آوي إلى سريرنا الفسيح، تحت لوحة النسيج الكثيف الذي يصيح فيها الديك الأحمر الخيوط، مشتعلاً، يفتح منقاره الكبير رافعاً رأسه بلا صوت، لا يعطي نفسه راحة. كانت قد سبقتني. كنت أعرف أنها نَضَت الآن فستانها الأحمر الحرير المنقوش بالأبيض، وأنها تخلع السوتيان البيج الصغير الذي تفيض ثدياها على جوانبه، بشريطه المطاطي اللدن الذي يحبك ظهرها البديع المكين، جسمها السامق الليِّن المطواع حُرٌّ الآن، صدمة جماله عندي، في كل مرّة، جديدة تخطف أنفاسي.

رأيت فجأة أن القرد المقدّس يقف على باب الغرفة المفتوح، يحجبه ويسده.

كان في جسمه المجعّد لمعان الجرانيت الأسود، جلده الداكن متغضّن الطيّات، وشعره الكثيف يرسل شرراً كهربياً تقشعرّ له روحي.

وكانت حول عنقه، ووسطه، عقـودٌ من الفضّة وحبّـات الفيروز، لها صليل على جسمه الصلب.

كان غير انساني، غير عاقل. وقريباً جداً مني أعرفه تماماً، ويراني. مدَّ يديه وأطبق على عنقي.

١٩٨٩/٨/٥

عَ المسرح

«الأقْنعة غواياتُ الحقيقة»

كان ميدان الأوبرا ليلتها بهيجاً.

عناقيد المصابيح الكهربية ناضجة بعصارة بيضاء مشعّة، وسعف النخل السلطاني يهمس في نسمة المساء، وتمثال إبراهيم باشا يومض جسمه البرونزي في كبرياء.

دخلت وحدي.

السلالم الرخاميّة والباب الحديدي عريقة تلمع. والسجاجيد الحمراء تمتص الأصوات.

وجدت أن اللوج المنخفض الذي يطلّ على خشبة المسرح مباشرة ما زال خالياً. كان مقعدي وثيراً ومغرياً بالراحة. استندت إلى سياج الشرفة المبطنة العميقة اللون، وقلت: «لماذا لم يأتوا؟ أوشك الميعاد أن يجيء» ثم كأنني نسيتهم تماماً.

كان طنين الكلام وحركة الأقدام واللغط الهادىء يصعد إليّ من القاعة المنشورة بحبّات النور المدوّرة، وكانت حمرة القطيفة المكتومة توحي ببذخ مكتوم.

الدقّات الثلاث، خفتت الأضواء وسقط اللغط والطنين رويداً.

جاء إلى مقدمة الخشبة، من أمام الستار، رجل ثقيل الخطو، قصير، مدموك البنيان، وفي يده ورقة. سمعت جاري يهمس بصوت واضح: «محمد بك صبري المدير».

وقف مدير الدار أمام عمود الميكروفون بقرصه المضلَّع الكبير، انتبهتُ الآن فقط إلى أنه كان هناك، منذ البداية. وقال: سيداتي وسادتي. يؤسفني جدّ الأسف أن أنهي إليك.. أن أقول.. أعلن.. عندي نبأٌ أليم..

انفتحت الستارة الثقيلة المذهبةُ التطريز بصوتِ حفيفٍ معدنيّ مسموع.

ولكن المسرح خاوٍ. ديكور غرفة الاستقبال الأوروبية التقليدية من القرن الماضي، ويبدو موحشاً، خافت الأضواء.

وعندئذ رأيتهن. كل الممثلات. يقفن صفاً واحداً في الأمام، وخلفهن الممثلون، في الصف الثاني.

ملابس التمثيل النسائية الضخمة الوقور، قديمة الطراز، تبدو عليهن جد قشيبة لم تُلبس من قبل، الفساتين الملوّنة، زرقاء وخضراء وموف، لامعة وثقيلة ومنتفشة ومليئة بالكشكشة والتوشية، راسخة الشكل، والبدل الرجالي ذات الياقات المفلطحة العريضة والفتحات الضيِّقة والأزرار الكثيرة.

كانوا صامتين، جادين في وقفتهم، دون حركة.

نزل على القاعة كلها صمت الترقب.

خرجتْ من بينهم، طويلة، قوية الحضور. وتقدّمت إلى

الميكروفون، فكأن المدير قد اختفى، مع أنه، فقط، تراجع خطوة واحدة إلى الوراء.

طاف بذهني أنها ما زالت تحتفظ بهالة من مجدِ مسرح العشرينات، عندما كانت معبودة الطلبة، فكّوا لجام جوز الخيل من عربتها الحنطور الملاكي وجرّوا العربة بأذرعهم المتكاتفة ثم تسابقت حشودهم إلى حمل العربة حملاً، من بيتها في شارع فؤاد إلى المسرح في عماد الدين.

سارة برنار الشرق، النسر الصغير، هاملت، كليوباترا، شجرة الدر، ديدمونة، بلقيس، ملكة سبأ، جوليت وليلى، زبيدة البرمكية، زيزي هانم وليلى بنت الفقراء، معاً، كم من أقنعة حيّة.. كم من حيوات!.

وقفتُ مروَّعاً، كنت قد صرختُ دون أن أعي تماماً ما أفعل، ارتفعت بعض الأنظار إليّ من تحت، اتجهَ إليّ اثنان من شرطة المطافىء الذين كانوا على جانبي خشبة المسرح، كأنما ليمنعاني من الحركة.

وقفتْ صامتة لحظة.

وقالت: سيداتي، سادتي.

كان صوتها يرتعش، محمّلاً بشحنة هزّت القلوب، وكأنما انتفض شرر النار غير المرئيّ في جو القاعة كلها.

ثم كأنما استجمعت نفسها المشتتة بجهدٍ جهيد، وهي تقول:

ـ سيداتي، سادتي.. إنه ليحزنني وأنا أقف بين أيديكم على هذا الهيكل المقدّس، أن أنعي إليكم سقوط وردة المسرح اليانعة، نجمة الفن الساطعة، ممثلتنا الباهرة.. الزاهرة..

تكسّر صوتها مرّة أخرى وهي تنطق اسمها.

قالت كأنها تستجمع آخر ما في وسعها من تشدد:

ـ سقطت من بيننا منذ قليل.استدعينا لها نُطس الأطباء، ورفعنا أيدينا إلى السماء. نقلناها فوراً في كنف الأطباء. ولكن.. لكن أمر الله نفذ.. وفقدناها.. يرحمها الله.

ثم أجهشت بالبكاء الصريح الذي كان له الآن صدى غريب في القاعة الصامتة.

كانت القاعة قد شهقت، كأنما من غير وعي، عند سماع الاسم.

الآن هبّ الناس واقفين، انفجر النشيج والبكاء وصرخاتُ نسوية قصيرة ثاقبة، أضيئت الأنوار كاملة وانفتحت كل أبواب الخروج.

نظرت عَرَضاً إلى جانب الكواليس القريب مني، الأعمدة الرومانية المتقنة الصنع معمولة من الخشب الخفيف، أقواس النصر عتيقة الحجر، من الأبلاكاش، فازات هائلة خضراء خزفية اللمعان، من الكرتون، غابات السرو والبلوط شاسعة حتى الأفق البعيد الذي تغرق فيه شمس متوهّجة الحمرة على لوحة مترِبة، كراسي لويس الرابع عشر مكوّمة فوق بعضها بعضاً، الموائد الرخامية السوداء، أسوار البيوت الريفيّة من الشجر القصير المجذوذ تحيط بجناين مونقة بالتيوليب والبنفسج، الجبّانات الممتدة في ساحات الكنائس القوطية، الكوبري على الترعة الصغيرة أمام القهوة الفلاحي، المآذن السامقة وجدران الجوامع المخطّطة بالأصفر والبني القاتم، السلالم الضخمة العريضة الدورات تصعد إلى شرفات داخلية مسوّرة بحديد مشغول ترتمي عليه خصل الزهور، فناء محطّة مصر، وتماثيل عريقة ملقاة على وجوهها مكسورة الأنف، المنصّات والبراتيكابلات الخشبية، فوانيس

الغاز مضيئة أبداً في شوارع مبلّلة بالمطر، بكرات ضخمة من حبال متورّمة الفتيل وسلالم نقالي شاهقة وكابلات متدلّية وسميكة منذرة بالخطر، والأنوار الصفراء تتخايل بين هذه الركامات، تخبو وتشتعل بضعفٍ من جديد في ممّرات ضيّقة. يهبّ الهواء فجأة على القماش المرسوم والورق المقوّى فتهتزّ الأعمدة والغابات والبنايات بخفّة وبترقرق نسيجها. صعدت إليّ رائحة تراب الكواليس.

وهي، وحدها، واقفة هناك.

كانت تحدِّق إليّ، وكأنها لا تراني.

أعرف أنها ميّتة، وأن حبّي لا يموت.

لم يكن أحد يراها هناك. لم يسمع أحد صرختي. هل ناديتها؟

وكأنما ارتسم على شفتيها ظل ابتسامة.

وعرفت أنها تتألّم ألماً عميقاً لا برء منه. لا لنفسها، بل لي، وربما لنا كلنا.

قلت: ما الذي يدعو إليك هذا الألم؟

قالت: لا شيء. ربما نزعة حارقة، هكذا، إلى أن أقول.

قلت: لماذا الألم؟

قالت: أزمة معقودة في النفس. ترمضني. الكبرياء تحول بينها وبيني، هل لأن حريتي الوحيدة هنا؟

قلت: أما من خلاص آخر..؟

قالت: امتناعٌ كامل للوصال.

قلت: أحتم أن ينوء بالواحد كلُّ هذا الثقل؟

قالت: هذه ساحة موحشة. ليس فيها أحد.

قلت: ولا موكب المحتفلين. ولا المريمات الثلاث؟

قالت: ولا جنود التعذيب، بالسيوف والرماح.

قلت: ليس من أجلك. بل من أجلهم.

قالت: ليسوا هناك.

ثم قالت: ومن أجلك أيضاً. فهل عرفت؟

قلت: مريرٌ حمل هذه الأثقال في داخلي، أنا أيضاً. وما من طريق.

قالت: وكأنني لم أقل. لا أحد سمعني. كل ما فعلت كأنه لم يكن.

ثم قالت: لا يريدون مني ما أعطيه لهم. أقدّم لهم أشواقي وهتفاتي، صيحات حب وعذابات، جذاذات الروح. ما من أحد يصغي. لا يريدون. لا يريدون.

قلت أنا: واحدٌ هو الكل. أسمعك أنا يا حبيبتي. أريدك أنا. ولو واحد فقط.

قالت: ما زالت ساحة الجلجثة موحشة. وحيدة.

قلت: الأقنعة غوايات مُقيمة.

قالت: دموعي لكم. أنتم لا ترون.

قلت لنفسي: النور ظلمةٌ كاملة. طبعاً. ماذا كنت تنتظر؟

قالت لي: كانت قرية أمي في الشرقية مرميّة على أرض كأنها سحاب مربدّ منذِر بالمطر الوبيل. وعندما تمطر الدنيا فعلاً تتحوّل طرقاتها إلى أوحال عميقة الطين، وتترك البهائم حفراً غائرة متتالية في الأرض المعجونة بالبلل.

سوف أقول: ستأتي لهم كهرباء السد، والتليفزيون، وأفلام

البورنو في الفيديو، وفراخ الجمعية، والعيش المدعوم أبو عشر قروش.

قالت: الطقوس اليومية كانت محور حياتهم. النوم على الفرن شتاء وعلى المصطبة صيفاً، مضاجعة النسوان ليلة الجمعة المفترجَة وكل ليلة أخرى عند فَرَج الله، عناق الأرض بالفأس والمحراث، الصلاة في الجامع،الجوزة وطقّ الحَنَك ع القهوة ونَتْف فروة الرابح والجاي، كتابة العرضحال والشكوى الغفل من الأمضاء، أكْلة البِتّاو بالمِشّ والجُعْضيض كل يوم. والزَفَر أيام المواسم والأعياد، زيارة الموالد والتبرّك بالقديسين وأولياء الله الصالحين وطلب الشفاعة من الإمام الشافعي والسيدة زينب وكلِ أعضاء المحكمة الباطنية ببركة الرسول، السيجة والتحطيب، طقوسيّةٌ عريقة متحدرة من غورٍ بعيد، مأخوذة إلى القلب دون تفكير، وليست شكلية.

ثم قالت: والقبح اليومي قناعاً. وفيه شِعر أوليٌّ وعميق.

قلت: ما من شيءٍ يغفر القبح والمرض والظلم. ولا الشِعر.

وسوف أقول: ماذا حدث لنا، ولهم؟ خُمّت مصر برائحة النفط وفلوس الخليج. خمّت بموتانا، هاتِ الرفش والمعول. سقطوا تحت سطوة الاليكترونات. لكنهم يظلّون يقولون: يرزق الهاجع والناجع والنايم على صماخ وِدانه.

كانت البروجكتورات الضخمة تلقي بأضوائها الساطعة فتنعكس من على خشبة المسرح وتنفذ من بين أستار الكواليس الجانبية تلقي خطوطاً عريضة حالكة السواد كأنها قضبان حديديّة غليظة نائمة على الأرض، وخطوطاً ناصعة النور تغشي البصر في العتمة الجانبيّة.

وكانت البقعة الدائريّة الرئيسيّة من النور تنصبّ عليها.

تبدو صغيرة القدر لكن بضّة، مليئة، سيّالة الجوارح في وسط ساحة المسرح، وجهها مشرق وسعيد.

في صوتها وإيماءاتها هذه الحرية، هذا التبذل، عطاء الجسد للجمهور طواعيةً دون ضنّ.

وكأنها لا ترتدي، أصلاً، تلك الملابس المقطوعة المسدلة بمكر وحذق على جسمها المتحرِّك الذي يبدو كأنه يعود إلى براءةٍ حسيّة بدائيّة فلم يعد بحاجة إلى غطاء أو عراء مثل الأجسام الوحشيّة تجوس وتتربّص بصيدها الطبيعي في عنصرها الطبيعي.

قلت: أيها القناع؟

قلت: أليس الحق كامناً في القناع؟ ماذا تقول المرآة؟

من يقول إن هذه التي تنطلق عن سجيةٍ عميقة فيها ليست إلاّ قناعاً؟ من يقول إنها لا تمشي. هنا والآن، حقاً، على برّ هواها.

قالت لي: كان يريدني أن أكون له، في غرفة النوم، كما أنا، لكم جميعاً، على خشبة المسرح. ذلك مستحيل. تماماً. ماذا باستطاعتي أن أفعل؟

قلت لها: من أنتِ؟

كان ينتظرها على الباب، شاحب الوجه، غضوباً، له فكٌّ مضلَّع وشارب كثيف على طريقة ستالين. وانطلقت تجري إليه من على الباب، كان ينظر إليها بعبوس، دخل معها العربة الفولكس واجن القديمة ذات الرفرف المكسور. مضت السيارة إلى ناحية كوبري أبو العلا.

كان الخواء كاملاً. الحلم قد أُفرِغ فجـأة من كل محتـواه. ليس فيه ولا صورة واحدة. بل ظلامٌ يهبّ فيه هواء غريب.

١٩٨٩/٨/٨

على جسر ممدود

«يقينُ الجسد موتٌ أول»

كانت مياه النافورة في وسط ميدان العتبة تومض وتُشعّ بالليل وهي تنبثق ثم تتساقط، زهرة مائية كبيرة تتفتت نِثاراً.

نقيق الضفادع يصعد إليّ من حول النافورة، عنيداً مليء الحَلْق. رأيتهن على أطراف الرخام المبلول، خُضراً مرقّطة ومنتفخة بملاسةٍ داكنة. كانت هادئة وواثقة.

الترامووايات تدور حول الفسقية تئزّ، وتصرّ بعجلاتها الحديدية صريراً يكشط الروح، ثم تنشعب - وهي تتأرجح، غاصةً بالناس - إلى مقاصدها، أو متاهاتها. تصعد شارع محمد علي أو الفجالة أو فؤاد أو شارع الجيش، بعضها يدخل من بواباتٍ تتسع لها بالكاد، ومن بنايات كأقواس النصر مخطّطة بالأصفر والبنّي، وتنفذ إلى جوف العمارات التي تقع فيها لوكاندة البرلمان ومبنى البوستة وقهوة متاتيا، وتمضي وهي تصلصل بين الأعمدة المربعة المتينة الحجَر إلى عتمةٍ داخلية مُخايِلة، ويأتي غيرها يدور حول النافورة، أرقامها الإفرنجية والعربية، بالأبيض على أرضية زرقاء، غامضة لا تُقرأ في أنوار الميدان الخافتة، وأقول هذا إهمال من المسؤولين يجب أن يُصحَّح، وعصى السنجة الطويلة المائلة إلى الخلف تطلق شرراً صغيراً في احتكاكها

بـالكابـلات الكهربيّـة العلويّة المتراخيـة في الـوسط والمشـدودة عنـد أعمدتها الرفيعة الطويلة، والسائق يضغط على الجرس النحاسي الذي يجلجل برنينٍ معدني متعاقب متراوح النغمات.

صعدت إلى المقصورة التي تلي مقصورة الحـريم، مباشرة، وكـانت مفتوحة من الجانبين.

كنّ يجلسن، بالفساتـين المشجّرة أو السـاتان الـلامعة المكشكشـة، المعمولة في البيت، والملايات السوداء النازلة من على الكتفين، وقمطة المدورة المحزّقة على الجبـين. أجسامهن حـافلة مرتـاحة الأعضـاء على خشب المقاعد المتقابلة.

دار الـترام حـول الفسقيـة التي يـترجـرج فيهـا المـاء عنـد الحـافلة الدائريّة الرخام، من أثر سقوط نثار النافورة الدقيق، ويصفو ويـروق في الوسط.

السمـك محتشد مـتراكب في الماء الضحـل، مكـدّس فـوق بعضـه البعض، بطيء الحركة، سميناً وممشوقاً، شهيّ الشكل، وفكّرت أنـه يمكن أن يؤكل، هكذا، نيئاً وبريئاً، لأنه متـاح وسهل وجـاهز، ثـمار البحر ثمار الأهواء العميقة.

سقط عليه ضوء مركّز ساطع كالبرق، لحـظة واحدة، عنـد دوران الترام.

جلد القَرْمُوط الأسود الدامس، لامعـاً وزلقاً وشـواربه كـالفسائـل متوتّرة تجوس، عظام رأسه مفلطحة تبدو صلبة عنيدة المكسر.

والثعـابين النيليّـة تنسلّ وتنسـاب بنعومـة خارقـة من بـين جسـوم السمـك الأخرى، وتحتهـا وفوقهـا، تلتفّ حولهـا وتنثال منهـا، دهنيّة

الملمس، جيّاشة بطاقتها الداخلية المتلوية، في قوّتها تصميم وعزم على التلمّس والبحث المستمر.

البُلْطي المنتفخ الصدر بلحم النيل، أبيض الزعانف، لبنيّ الزرقة، غضّ، فلوس قشره البيضاوية المتراكبة مُنمنمةٌ واضحة وحادّة الحواف.

البوري والمِياس والقاروص، بحمرته الخافتة الخجول، بخطوطه العريضة اللامعة، داكن الظهر فاتح البطون، حلقات عيونه الصافية الزجاجية فيها إدراك يتجاوز كل شيء، والخياشيم حمراء ترتعش بحساسية مرهفة، مكوّمة فوق بعضها البعض، تنزلق وتتماس في سباحتها اللانهائية محصورة المدى.

وسمك موسى رقيق الجسم، مبطّط، عروقه البيضاء، خيوط لبنيّة اللون، تضرب في شفافيته النقيّة.

وزعانف السردين تنتصب وتطش الماء بارتطامٍ لزج في اندفاعاته واصطداماته ووثباته القصيرة على مسطح العُمق الضحل، وغوصه بعنف، رأسه أولاً، يشق طريقه تحت الكتل المتحرّكةِ ببطء أو الساكنةِ تطفو مستكنّة على فراشها المائي الكثيف، جسمانيّتها مطلقة، وجمالها كامل.

ثم أكمل الترام دورته.

من وراء الحاجز الخشبي الذي يفصل بين المقصورتين ولكنه لا يصل إلى سقف الترام أحسست ألفة الاجسام النسوّية التي تأتي على الفور بين الستات البلدي، وسقوط الكلفة بينهن في الأماكن العامة.

كان الصوت يتموّج مبطّناً بشهويةٍ دسمة:

ـ يـا دي النِيلة على رِجّـالة الـزمن ده ياختي عـادِيـكِ. دلـوقتي يـا حسرة، اللي يتجوّز واحدة عايزها تصرف عليه وعلى أهله كمان. كان زمان الواحـد يعرف مقـام الست، ويعرف يهنّيهـا. دلوقتي حتى أولاد الـذوات شحتوا عـاديكِ. وِولاد البلد قـال إيه قـال عـايـزين يعملوا ذوات، والستات هي اللي تشتغل يا حسرة.

ردّ عليهـا صوت تبـدو صاحبتـه في أول الشباب، لكنـه منذ الآن صوت امرأةٍ تحقّقت نسويتُها وأُحبِطت أيضاً:

ـ يُوه.. والنبي عندك حق يـا ختي عَدّاكِ الغلط والعِيبـة. قال مـا عِيبة إلاّ العيبة دا الجدع دلوقتي ياخد مراته يأكلّها سنـدويش ويركبهـا الترامواي اسم الله على مقامك وقال ياما هنـا يامـا هناك. زمـان كان الراجل ياخد مراته عند الماوردي ولا سمعـان تقطع قـماش من الغالي زيّ مـا هي عايـزة، ويودّيهـا عند الحـاتي، ولا الحـاج عـلي السـماك، ويأكلّها أكْلة معتَبرة. دلوقتي الجـدع من دول يخاف يمشي معـاها عـلى كوبري الست بديعة لحسن نفسها تروح لقزازة كازوزة.

ويعود الصوت الدسم الرخيّ الشبعان:

ـ يا ختي قطيعة تقطع الرِجّالة وسنين الرِجّالة.

وواضحٌ مع ذلك أنه ليس عنـدها أحـلى ولا أشهى من الرجّـالة، وسنينهم.

خـدعني الكمساري وأعـطاني تذكـرتين بتـلاتة تعـريفـة بـدلاً من حقي: تذكرة بقـرشين. ورأيتـه يمدّ يـده بتذكـرة بتعريفـة إلى السائق فيضعها في جيب معطفه الكاكي الكبير، وقلت: «كم تذكرة يحوّشهـا كـل يوم؟» وراح الـترام فجأة يلفّ ويـدور في شوارع جـديدة عـليّ،

غريبة عني، ولكني أعرفها بشكل ما، كأنما هي شـوارع الاسكندريـة المبلّطة بـأحجار البـازلت السـوداء المضلّعـة يهبّ عليهـا هـواء البحـر المبلول، أو شوارع زيورخ والبنـايات الشـاهقة تحفّهـا بصمتٍ وثقل، ورأيت على غير انتظار أن في الترام بجانبي سيّدة نوبية نحيلة ضـاوية العظام تُخفي وجهها بطرحةٍ سوداء على طـرفها خطٌ عـريض بنفسجيّ داكن، وهي تكـحّ كحّة جـافّة، وكـان على حجـرها ولـد مجـروح في جبينه، والجرح مربوط بعصابة زرقاء كامدة تبدو عـلى قماشهـا آثار دم سوداء.

ثم نزل السائق، وتركنا.

وانـطلق الترام، دون تـوقّـف، يجـري فـوق انحـدار الجسر، عـلى صفحة النيل العريضة، بين المَوْتين.

وكأنما كانت قد قالت لي:

ـ الواقعة الحسّية، الفيزيقيّـة، البحت، هي وحدهـا المطلق. هي الكيْنونة. صميم اللحم، وحده، هو الحق.

وكأنني لم أقل:

ـ أعـرف. أعرف هـذا في لحظة انـدفاقـةِ المنيّ من حَقَويّ. نشـوة التحليق، بأجنحة الله، في سماءٍ لا قرار لها. أعرف. أعرف.

فهـل قلت: أمّـا همس الأحـاسيس، وخيـالات التجـريـد، فهي بضرورتها نفسها غائمة ومقطوعة، مهلهلة مهما أُحكم نَسقها؟

هل قلت لها أيضاً:

ـ أنتِ، في جسمانيّتكِ الخالصة، في جمالكِ الكامل، غير إنسانية؟

قـالت: انظرْ إلى وجـوه القديسـات، جامـدة تمامـاً، جميلة بثبـاتٍ تماماً، في لحظة الاستشهاد، وهنّ يَـمُتن.

قلت لها: أعرف وجهك أنتِ في لحظةِ ذروةِ العشق، وأنت تأتين، على شفرة النشوة الحادة النهائية، هذا الجمال في الموت، هذا الجمال في القتل، هذا الجمال على آخر المتعة، هو، هو، نفسه، جمال القناع. جمال الأبد. نظرة الحياد الكامل كأنه إنكار كامل.

وقلتُ أيضاً: فيما وراء الانساني. فيما وراء جسر الفَقْد.

قالت أيضاً: عندك هوس التثبيت. جنون *الحَجَر. وَهْم الديمومة* المستحيلة.

قلت: الجمال الكامل ـ كالعدالة الكاملة ـ هو أيضاً لا إنساني. صرخته خرساء إلى الأبد.

قالت باسمة، بخفوت، بعابثةٍ كأنها آليّة: أنت كالقطط، تأكل وتنكر.

قلت، جاداً، أحسّ سخافة جدّيتي: على العكس. قُبلْتك على يدي ثابتةً إلى الأبد. وعرفاني بها مقيمٌ حتى عبور ضفّة هذا الجسر، هذا الحب، الذي هو نهاية.

قلت لها: شيخنا أبو العلاء قال: «حياةٌ ـ كجسرٍ بين موتينْ. وفَقْد المرء أن يَعبر الجسرُ».

قلت: مُعيداً وممّلًا: طعم حبّة ثديك في فمي لا يزول. سفرنا معاً لا يُحطّ الرحال.

وقف الترام وحده.

وصل أمام حديقة، كأنها في «مينا هاوس»، وارفةٍ وأثيثةٍ بأشجار السرو والنخل والجازورينا والسنّط والمانجة والجميّز. وكنت وحدي، أتشمّس، على كرسي من الحديد الأبيض المشغول. مسطحات العشب الخضراء ممتدّة أمامي حتى النهاية. مروحة البئر الارتوازية

عالية تـدور ببطء في السماء شـاحبةِ الـزرقة. وكـأنما الصحراء، بعد، هناك، عميقة ومنتظرة.

كان المبنى يرتفع إلى يميني، بأدواره المتتالية، شاهقاً وعـريضاً، فيـه شرفات ناتئة، حجريّة، بسياجٍ من أعمدة الرخـام القصيرة مسحـوبة عند الطرفين ومليئة عنـد سمانتي السيقـان اللامعـة، وفيه *مقصـورات* داخلية تغوص *في آبار السلالم المكشوفة*.

وكـانت الصروح الثلاثـة الشامخـة تبدو لي، عـلى ثقلها ورسـوخها الألفيّ، محلّقةً في السماء البيضاء تقريباً، بلا وزن.

كـان ميـلاد وصفي يتجـه إليّ، وخفق قلبي من المفـاجـأة. نسيت الآن تماماً كأنني لم أعرف قط أنه غرق في العجمي منذ أربعين سنـة، وكان يبتسم وفرحت بلقائه وقلت له بلهفة: «ما رقم غرفتـك؟» قال: «لا أعرف. وأنت؟» قلت: «١٦» قال: «هذا رقمك السحري، أليس كذلك؟ خـلِّ بالك!» وفكّرت أنـه سيلقي علينا الليلة مـا يحفظه من أغاني الصيّادين والفولكور الاسكندراني، وأنني سأكتبها، وأضع عنهـا مقـالة هـامة. ولم أجـده أمامي، ولكنـه ترك في يـدي حس يده وهـو يصافحني مودِّعاً إلى لقاء، وكأن يده غير المرئيـة ما زالت تمسكني. ولم أستغرب. وكانت الكلاب تنهش الزروع، بصمت عاكفة عليها.

قلت لنفسي: عيونٌ زرقاء بنـار الجشع والجـوع المستمر، منضبـطة الاتقاد، تعرف الكثير جداً، ولا معرفة عندها بشيء.

آلات كفء قادرة، نهشة.

قلت: نحن.. نحن كـالسمـك، كـالضفـادع. لكن جسـمانيّتنـا ملوّثة.

قلت: أيضاً: هنّ أخريات. كلٌّ منهن مستقلة، معزولة، تماثيل، بل دُمىً مصقولة، أثداؤهن المبذولة الصلبة مكشوفة على عظام القفص الصدري. بطونهن مسطّحة. معاديات، لأنفسهن، للرجال، للعالم.

قلت: أنصاف حقائق وأشباه حقائق. ككل شيء.

قلت: أمّا الدفء، والمعرفة، والحقيقة، فليست هنا، أو هناك. ليس لها مكان، ولا تاريخ.

قلت مكرِّراً ورتيباً: صحيح. ووهْمٌ لا يقوم على ساقين.

الكلاب تشبه نفسَها تماماً، كما هي في نقوش الأحجار العتيقة، كأنها بنات آوى، لم تغيّرها أزمنة سحيقة.

طويلة الأعناق، مسحوبة الجسوم. جاءت في جماعات من أطراف الصحراء، حلقات وفُرادى. تنبح أحدها الآخر، وتعوي، ترفع رؤوسها المتوتّرة، على آخرها، إلى القمر المضيء بنور صلب.

كانت ضراوتها وحشيّة، وكانت تتوفّز للهجوم، أو للفرار، خوفاً أو يأساً، مشحونة بتهديد كأنه آتٍ من وراء القبور.

٨٩/٨/١١

القرد والأطفال

«تمزّقات النور ليست مُظلمة»

كنت أعرف أنه حيوان عاقل. بل كنت أرى في عينيه عقلاً لم أره من قبل في عينيْ أحد.

تصوّرت أنه سوف يتجه إليَّ بالحديث، على الفور. لكنه استمر ينظر إليّ، فقط.

كان عريض الكتفين، بارز الفكّين، وصغير الجسم. في لون الحديد الأرمد.

ورأيت أنه يحمل، على رأسه العريض المفلطح، قرصَ الشمس المنطفىء، متأرجحاً بثبات على قاربٍ شاحبِ النور.

وكان شعر جسمه يتدلّى عليه، من حول رقبته الممتلئة وعلى منكبيه في خُصلٍ مجسَّدة تنسدل عليه حتى تغطّي قضيبه الكبير. وكان جسده نَيِّرا من خلال هذا الستر.

لم يتكلّم.

في الصبح الأول، في أول الصبح، نزل من على السَنْدرة التي تعلو الحمام في بيتنا القديم، وكان الحمام الأبيض حواليه يهدل بصوت غريب، وقد ضمّ جناحيه، واقفاً على ساق واحدة، رفيعة وطويلة ومحمرّة الجلد.

نزل القرد الصَموت على السلّم النَقّالي بخفة ورشاقة، وحركاته فيها حكمة ليست فطرية بل متدبًّرة وما زال هادئاً، صافي العينين.

ثم بسط جناحيه الواسعين من تحت شعر جسمه المنسدل.

قلت: من فصيلة الملائكة.

كان جناحاه طويلين، قويين، وفي حركتهما المفاجئة هبّ عليَّ هواءٌ بارد.

كنت تحت جناحيه. كان يطويني تماماً.

وقال لي عندئذ: ما دامت عين المعرفة مفتوحة فلماذا لم تهجع عين الجسد؟

وقلت له عندئذ: عين الجسد أيضاً ترى حقيقتها. وحقيقتها لا تُدحَض.

وعندئذ سطع منه النور الباهر الصاعق فأغمضت عيني مخافة التهلكة.

وفي البرق المحيط سمعت صوته: كل نورٍ آخر هو الظلام.

وكنت على يقين كامل بأنه لم ينطق، قط، هو اللسان الدائم المتحرك أبداً بشهوات الروح وعزم الجسد.

بكى قلبي.

أمّا هي فكانت جالسة عريانة تقريباً، على الصوفا الوثيرة. ساقاها كعمودين نازلين على السجّاد العميقِ المَوج، ومياه الفسقية المنحوتة في الرخام تسيل بخرير ناعم من فوهات النافورة القليلة الارتفاع.

وكان القرد العاشقُ يقعي تحت قدميها، يرفع إليها عينيه العسليتين بنظرةِ عبادة.

مدّ ذراعيه وجناحيه معاً، وأحاط ساقيها العبْلتين بأطرافه الأربعة، وانطبق الجناحان بصوتِ ارتطامٍ لَحْميّ. كان فخذاها العاريتان تطفوان فوق كتلة العناق الأرضيّ، وكان بطنها المدوّر الرائق السمرة يستقر، براحةٍ وتماسك، على رأسه المدفون عند ملتقى الفخذين، وكان صدرها الشامخ، عالياً فوْقُ، مثمراً برمّانتيه الخمريتين الموردّتين، تحت الجاكته النايلون الشفافة، فاتحة الزرقة سماوية النور، مفتوحة. وكانت أكمامها القصيرة وفتحة الطرفين كلها ملفلفة بتطريزٍ متراكب التلوّيات على بعضه البعض، منْ نفس اللون ونفس النسيج.

قلت: هذه قُدسيةٌ تتجاوزنا.

وقلت أيضاً: كل موازيني ترجِّحها هذه اللحظة، الساكنةُ الأبد.

وقلت أخيراً: ومن يرصد حسابَ الزمان غير المرصود؟

أخفيت عينيّ، وفكيّ، وأسناني القوية، بين فخذيها.

في البحيرة الساجية عرفت أن في ظلمة هذا الجسد نوراً لا مثيل له، وفيه بهاء لا قياس عليه. كل شيء آخر ـ مضى أو سوف يجيء ـ جافّ خشن معتم.

وقلت: في هذه عَمَى اللحظة أزلُ البصيرة.

وانتظرت انقلابَ الموج وضرباتِ عاصفةِ الشهوة.

كنا معاً، جميعاً، وكنا قد شارفنا على حمرةِ صباحٍ صامت. دخلنا حديقة مهمَلة، عليها ورق الشجر اليابس، وبقايا السنين. كان سورها الخشبي مفكّك الألواح، متداعياً.

الأشجار الدهْرية الضخمة وارفة وغصونها الكبيرة، مفروشة

واسعاً، متهدّلة وشعثاء، تحتها دِكك عتيقة متآكلة الأطـراف مشروخة الخشب.

وكـأنني نشقت رائحة الـتراب الـطبيعيّ القـديم تهبّ في الممـرّات المظلّلة التي تغطيها حشائش جافّة وقوية العود.

أما البيت فكان كبير الحَجَر، منخفضـاً، ليس في جداره السميـك إلّا نافذة عريضة واحدة، مفتوحة على غرفةٍ عريضة واحدة، مهجورة ومعتمـة، وفيها بيـانو ضخم، مـائـل عـلى جنبـه، مكسـور الأقـدام، والصوفا مكسوّة بقماس كريتون أصبـح الآن من غير لـون، مطمـوس النقوش. ورأيت أن البيت يقع عـلى جسرٍ رمليٍّ مـرتفع فـوق شاطىء النيل المهيب، أمواجه في الفيضان متلاحقة خصيبة الحمرة مُدمِدمة.

وكانت ترتفع على جـدار البيت الخلفي تعريشـة عنب، عناقيـدها صلبة محجوزة العصارة، وأوراقها العريضة خشنة الملمس، مانعة.

قلت: لماذا الخراب؟ والبينونة؟

قال: لأن الصمت نذير الفناء، وصنوه. لماذا صَمَتَّ؟

قلت: لم أنطق كلمة زور واحدة.

قال: لن تجتاز. لن تصـل إلى الشط. ليس لديـك من مركب ولا مجداف.

قلت: ريشـة مَعْت شراعي الوحيـد. تحته إبحـاري وعبوري. لن أخشى تحته موج الـظلمات. متى أجد عـذوبة الصحبـة، ورفقة أرواح الفجر؟

وكان البيت القديم قائماً هناك، كأنـه من بيوت عـمّال الدريسـة في الـزمن القديم، حـارساً عـلى قضبان السكـة الحديـد. ولم يكن هناك

حوله شيء، ولا أحد. في خارج حديقته المنسيّة لا شجر، ولا غيطان. فقط، عميقاً تحت الجسر الرملي العالي، يجري النيل، فسيحاً مرتفع الصدر بموجه المحمرّ الغضوب.

ورأيته يقف على باب البيت وحيداً، مدموك الجسم، شعره الرمادي يكسوه حتى الأرض، ورفع ذراعيه إليَّ، في عينيه نظرةٌ ترصدني، ولم أفهم ما في حركة ذراعيه، هل هو تهديد، أم تضرّع؟ كان جناحاه مطويين.

قلت له: أدركْني. إن قدميّ غير ثابتتين وأخشى أن يجرفني الفيضان. لم يقل شيئاً.

وكأنما قال: ما من نجدةٍ لك أبداً. اجتاحك الطوفان أم خلاك، سواء.

سقط قلبي. كان يحمل وجهَه، مربّع الفكّين، حادّ الأسنان، وكانت عقود الفيروز وأطواق تمائم الخزف الأخضر تخنقني.

وكأنما انحسرتْ، هي، عنّا. بارحتْنا. البينونة قاسية. الفُرقة لا تطاق، والقَطْع.

لم نعد إلاّ أنا، وهو.

قلت: أنا؟ أم هو؟

أمام البيت، وجدت الطفل نائماً على الرمل المحبَّب والحصى والزلط، بلا حراك. كانت جلابيته كالحة من التراب والطين والدم الجاف، وممزقة تبين منها عظام صدره الناتئة السوداء. كان وجهه محترق اللون، مغمّض العينين بعناد، والجلد مجعّد حولها. كان فيه مع ذلك شيء ما، لا أتبيّنه، يقول لي أنت هو الطفل الذي كنت، مع كل الغيبة، ولمّا تزل.

صرخ فجأة وهو نائم، صرخةَ وجعٍ طويلةٍ طويلة، متقلبة. معذَّبة، لا تُحتمَل.

من غير أن يستيقظ.

كأنه تعلّم أن يتعايش، من غير حلّ، مع الألم المُقيم، ومع الكابوس.

رأيته مرّة أخرى، يمسك بالعلم الأخضر الأبيض الأسود يلوّح به ويطوّح بالحجارة سمعت انفجاراً مكتوماً للغاز المسيل للدموع، بين حيطان الأحجار الألفية، وقرقعة الرصاص. كان الطفل تنهلّ من عينيه دموع ليست من الحزن ولا من الألم.

ثم رأيته يسقط مضروباً بالنار، مرة واحدة، جامداً متصلِّب الوتر، على أرض الجلجثة. دون صوت. وكان ينزل من ركنِ فمه خيطٌ رفيع من الدم.

قلت: مطلَق الألم تجريد. ليس في الألم مطلق. هو دائماً معجون باللحم الحيّ.

قلت: أليست حقيقة الحس في مجرّد تقريرها؟ دون برهنة. دون دليلٍ. قوتها قوة الحلم. سطوة الكابوس لا تُنقض. ما الذي يعطيها نهائيتّها؟

ولكن الكابوس، هو غيرُ نهائيّ، مهما كانت سطوته. قلت.

كان الآن يقف في مواجهتي، مُحنيّ الرأس، صدره محلًّى بتمائمي وأحجبتي المنقوشة بخَطّي، بأبجديّتي، وهيروغليفيّتي. شخاليل الكريات الذهبية تتدلّى من رقبته الغليظة دون أن تصدر عنها أدنى صلصلة.

وكان يصغي إليّ، دون أن يتحرَّك، وكان هو وحده يدرك معنى ما أقول.

رأيته ينقسم أولاً إلى ثلاثة أطفال، متطابقين مع أحدهم الآخر، ومعه. ثم أربعة.

ثم لا نهاية منهم، واقفين صفوفاً متراصّة متعاقبة حتى الأفق، حتى آخر المدى. كل منهم صدره محلًّى بنفس التمائم والنذور، كل منهم تتدلّى من عنقه السميك أطواق كريات الذهب، ولكل منهم جناحاه المطويان تحت شعره الأرمد المنسدل.

أحسست. ، في جسمي، أن الثلاثة الأبكار ترتمي على كومات من الفحم المتّقد على بلاط البيت القديم.

صعد من الحجر الصلب المتوهِّج بالنار دخان اللحم والشعر المحترق، ورائحة الشيّ الجافّة.

ولكنها ظلت تحدّق فيّ، نظرتها يقِظة، حية، وعاقلة. لا شكوى فيها. ترصدني بهدوء. عيونها الستة في داخلي، أنا.

وكانت ظهور الأطفال القِردَة الإلهيَّة مقوسة الآن على النار، فوح احتراقها قويٌّ يملأ البيت، لا ينجاب.

انطفأت الأنوار، ثم أضاءت وحدها. وانطفأت مرّة أخرى.

مَن معي في البيت؟

كان على البلاط العاري ورق ممزّق يتطاير به الهواء، قصاصات صحف، تبيّنتها، وصفحات مكتوبة منتزعة ومشعّثة ومطبّقة ومتعرّجة القطوع. سمعت خشخشة الورق، قوية، واضحة في السكون.

قلت: مَنْ يمزق الظلام؟ مَنْ معي في البيت؟

ورأيته ينتصب قائماً أمامي من جديد، من بين رماد الأطفال الثلاثة المحترقين، رافعاً ذراعيه إلى أعلى، مفرود الجناحين بشعرهما الكثّ، عريضين، متوتّرين، ممدودين إلى آخرهما.

كان مُرعباً. وعدواً.

وكان قريباً جداً إلى قلبي.

اندفعت أفرّ منه.

انطلقت أجري، أهبط السلّم الحجريّ الوعر.

كان ورائي، أحسست أنفاسه السخنة، ولمحتهُ، بطرف عيني، ومعه فأس مدبّبة، حادّة السن، تومض في العتمة الخفيفة.

كان النور يبدو لي خطاً أنيساً من تحت الأبواب الموصَدة وأنا أتحدّر لا ألوي على شيء، أنزل السلالم التي لا تنتهي.

ولا الأبواب تنفتح، ولا صرخة الاستنجاد عليها ردّ.

السلم هادىء مسالم لا يأبه لنيّةِ القتل.

وحتى من قبل أن أصل إلى الباب الخارجيّ، المفتوح على مصراعيه تحْتُ، رأيت أن الأرض نوّرت بنور النبات الأحمر والأصفر والأبيض.

١٩٨٩/٨/١٢

رقصة الأشواق

«وطيور العشق جُثُوم»

كنت أربّيها، على سطح البيت القديم، في السَنْدرة، في البلكونة المطلّة على شارع ابن زهر، في راغب باشا، وفي الجانب التحتاني من مكتبتي الصغيرة ذات الرف العلوي والضلفتين الزجاجيّتين.

كان منها الأبيض الشاهق متّقد البياض، ممتلىء الصدر، هديله عميق.

ومنها الذي يضرب ريشه الهفهاف إلى زرقةٍ وحمرة متقلبة مترقرقة، منقاره طويل ولكنه صموت كتوم.

ومنها البُنّي الناعم، نكهةُ لونه أفريقيةٌ ساخنة وله غنة رتيبة الإيقاع.

والأسود المرقّط الذي تسري في طوقه المنقوش شهبة رمادية مائلة إلى البياض، يتخطّر بثقلٍ ودلال، ضخماً بطيء النغمة.

وكان منها الأملح المنقّط خفيف القامة دقيق المنقار، طويل السيقان محمرٌ جلدها يتنزى ويتوثّب تطير به النسمة.

ومنها مُوَشّى القدمين بزغَب صغير يرفرف، وحده، إذ يهبّ به الهواء.

ومنها نحيل القدّ مسحوبَ برّيّ الجسم كأنما شفّه هوى مشبوب.

لكن مياه عيونها، جميعاً، كانت صافية وعميقة، وكأنما فيها غضب نقيّ.

وكان ريشها الصغير يتناثر حولي، على الأرض، بين الكتب، تحت الكنبة، في كل مكان.

ويجف زِبلها الأبيض اليابس على الأرض، على المائدة الرخام المستطيلة الدوران، فوق رفّ المكتبة وفي قاعها، وحتى على السرير، فأجمعه وأبيعه بالرُخْص للرجل الذي يمرّ تحت في الشارع وينادي: زِبْل الحمام».

كانت تحوم منذ شقّ الفجر، وتطير، تخبط خشبَ النافذة وزجاج البلكونة، ثم تطير، ترفرف بحُرِيةّ، وتعود إليَّ في وقدة الظهر فتستِكنّ إلى حماي. وكانت تسبح بهدوء، دون صوت، موجِعة للقلب، في سماء ليالي القمر.

طارت الآن عني. هل تعود؟ هل تعود؟

بحثي ـ حتى الآن ـ عقيم.

بعد سنين طويلة رأيت حمامتين بيضاوين في ريشهما نثار البُنيّ الفاتح، تتبختران بثقةٍ وتمكّن في دكانٍ ضيّق في شارع الصَليبة حاشدتي الصدر، تنقران أرضية الدكان دون تعجّل. ورأيت فجأة أن هذا الدكان الفقير الغريب له أرضية ترابية، وكانت فيه رفوف خشبية مُسْودّة اللون، معظمها فارغ، وبعضها عليه ما يشبه الخردوات، وعلب صفيح كبيرة مقفلة وصدئة، وزجاجات بيرة وويسكي وكوكاكولا فارغة مرصوصة. وكتب مدرسية مستعملة وكراريس وكشاكيل وأقلام رصاص وأقلام حبر جاف، وبالونات منفوخة علاها

التراب، وعجلة بسكليت دائرية ضخمة مما يُستخدم في السيرك والموالد، واحدة، وخْدها، مقطّعة الاسلاك، وبَكَر ولفَف خيطٍ أبيض وأسود وحلويّات وكراملات ومصّاصات وبراغيت السِتّ في برطمانات قديمةِ الشكل، وأبَر الوابور والأقماع وأكواز اللوف الأبيض الخشن الفتائل والليف الأحمر المتهدّل الخيوط، وصناديق خراطيش السجاير الملوّنة ورصّات كليوباترا وروثمان جنباً إلى جنب مع عِلَب هوليوود وكوتاريللي وبَحّاري الفارغة، وروبابيكيا قليلة ملقاة على الأرض، نفايات البيوت طشوت مخرومة وحلل مطبّقة ومِرايات مكسورة، وأكوام مجلات عربية وفرنسية قديمة بهتت أغلفتها الصارخة الألوان وتمزّقت، وحوض حمّام من الرخام المشروخ الذي كان فاخراً في زمان العِزّ، منزوعَ الحنفيات والمواسير الآن، مسنوداً إلى الحائط المزدحم.

والرجل، بجلبابه الرماديّ، ولحيته الرمداء الهائشة، جالس على كرسي حمّام صغير يصنع لنفسه الشاي في إبريق من الصاج الأزرق المدوّر على سبرتاية صغيرة، يبدو هادئاً، سارح العينين في أفق خاص به وحده.

رأيت الحمامتين تأتيان إلى قدميه الحافيتين تطويان ساقيهما تحت الأجنحة، وتستنيمان إليه، وقد انسرح الريش على الجسمين الممتلئين.

صبّحت عليه، واشتريت منه نسخة من «ألف ليلة وليلة» قديمة من أول القرن، وناقصة جزءاً، وأغلفتها مفقودة، ودفعت له بعد طقس الفِصال الشكليّ القصير، جنيهاً واحداً. وعندما سألني هل

أكتب لـلإذاعة؟ وقلت لـه نعم، خصم لي عشرين قرشـاً مرّة واحـدة على سبيل التحيّة والرجوليّة.

قلت: أين حمائم أشواقي الطائرة؟

فنهض الحـمام، يتأرجـح وجسمه يهـتزّ بـين أقـدامنـا، وخـرج إلى الشارع لكي ينقر حبّات طماطم شـديدة النضـج تفجّر جلدهـا الأحمر الضارب إلى صهبة قانية عن لحم طري متهدّل به بذور بيضـاء كبيرة، كـانت الطماطم ملقـاة تحت جذع شجـرة سَنْط عريقـة خشنة مشقّقـة اللحاء، صاعدةً إلى ما فوق البيوت القديمة المائلة على أحدها الآخر، مبنيـة بالبغـداد لي والـطوب الأحـر الـذي اسـودّ الآن بـين عـوارض الخشب المتقاطعة ظاهرة للعيان. والشجرة تعانق أختها الصـاعدة من حفرة واسعة عميقة في خرابـة جنب الدكـان، من أثر هَـدْم. أحجار الهـدد القديمـة والأنقاض مـا زالت في الحفرة قـد غـاصت وجفّت في تربتها وفيها ربوات قليلة الارتفـاع ووهدات تـرابية تصلّبت ويبست، سوداء طينها لا يجفّ تماماً ولكنـه ليس مبلولاً تمامـاً، جذور السنـطتين التـوأمين تضرب في هـذه الأرض، عَضِلة عَبْلة مُعرّاة، خشبهـا يبـدو أكثر غُضرة وفتوّة من خشب جذعي الشجرة الواحدة المنقسمة اثنتين، والأغصان الفينانة تتشابك فوق سطوح البيوت المتداعية، وتـتراكب، وتصنع ظلّة خضراء عريضة.

قلت: لماذا تسحرني الشجرة الوحدانية المشطورة، غير منفصلة؟

قلت: هل لأن الحمام السمائي، بعيداً، يقـطن أفنان هـذه الشجرة التوأمين، حضنها وأعاليها، جاثماً فيها جُثوم الموت؟

أما الحمام الأبيض الأرضي الشكل فلـم يلتفت إليّ أدنى التفات.

قلت: المحبّة تحتمل كل شيء.

قلت: حانت ساعة تَلَفِي. تهتّكت روحي شوقاً.

كنت على شاطىء «كامايين»، أطلّ من شرفة «أوتيل دي فرانس» العريضة الفخمة. أمامي على المائدة الرخامية كأس طويل من «ماري الدامية» على حافته لذعة الفلفل الحادّة. هواء المحيط يهبّ عليّ من خليج غينيا بسمائه المنخفضة المحمّلة بسحاب أبيض سرعان ما سوف ينجاب عن حرّ مصوِّح.

الصخور السوداء ناتئة الحوافّ عميقة الشقوق شواهد ماثلة أبداً على اهتياجِ بركانٍ قديم وسفوح الرمال تتهادى بيضاء طحين ناعم مسحوق جيّداً تتلألأ في نقط متوهِّجة مثل سِنّ الابرة. وأشجار جوز الهند سامقة يميس سَعَفها بالثمار المحمية المكنونة في العلاء.

الخليج الاستوائى في بهرة الصبح هادىء موجه لا زورديّ كأن صفحة الموج سماء توأم أخرى مبسوطة تحت أختها حتى شفْرة الأفق، لا تكاد تترقرق.

شِباك الصيادين مفرودة على حجر الكورنيش المنخفض، مغسولة تفوح برائحة السمك وقد ركعوا تحتها، بأجسامهم الناحلة المفتولة، وطيّات اللباس الإسكندراني الأسود ملمومة تحت جذوع السيقان الجافة، يرتقون قطوعها بإبرٍ طويلة تومض عندما ترتفع وتنخفض بين فتائل الشَبَك.

شَبَك حبيبي شَبَك.

القارب الصغير، مشدود الأضلاع، يقف على سِيف البحر، عند الخط الفاصل بين الرمل والماء، يمسك دفّته القردُ الإلهيّ العاقل، مدموك البنيان.

القامات الأنثوية الرشيقة، أراها، في عكس النور، مجسّمة سوداء، والنهود ثمار أخرى لامعة الجلد ناهضة بعصارتها الكثيفة المتماسكة.

تنزلق الحمائم الداكنة منسابة، بالكادِ تماماً على سطح البحر.

هل نزل البحّارة بخناجرهم العريضة وذهبوا بهنّ إلى سفينة إسبانية جوانبها مصفّحة برقائق الذهب، غارقة محمّلة بكنوز القراصنة القدامى؟

ما الذي يهفهف خلف القلعة العريقة التي لا يكاد الزَبَد النقيّ البياض يرغي تحت سفحها؟

أراه من فوق حافة «ماري الدامية» وأوقن أنه ليس ثم شيء.

كل شيء سوف ينقلب بين لحظة وأخرى إلى نقيض ما يبدو عليه.

القارب السحريّ مركب سمك فقير عاد به الصيّادون إلى المرسى بعد كدح ليل طويل في قبضة الموج. تتزاحم بنات الأنفوشي وبحري ورَاس التين عليه، والستّات التُخان بالملايات السوداء النازلة من على الأكتاف المدوّرة تبدو منها قمصان النوم غير النظيفة تماماً عارية الأذرع والنحور، ليأخذن منه بالرُخْص شَرْوة سمك ملء القفّة، ملء الحلّة من السبارس والشِرّ الصغير، أو ملء الكَرَوانة جمبري عاجيّ الجسد.

السفينة السحرية شراعٌ مبسوط في نسيم الصباح، فَرْدُ جناح حمامةٍ بيضاء، تحلّق وحدها في سماء الإشارات، سَبْحةُ صَبَابة، وجْدٌ لن يبقى منه أثر.

أترقّب، وأتوجّس خيفةً من الزوال والدثور، ملهوفاً أمام دوران دراما لا سيطرة لي عليها، لا أدري عمّ تتمخض في أية لحظة. أُحس

رفرفة في داخلي لا أعرف أن أهدئها، ولا أريد أن أطامن من روعها.

وأعرف أن هذا كله قرين البِلى وأن العطب لا محالة مُدركي، والتهلُكة.

هاأنذا في سخونة أحشاء العالم. أثداؤها المليئة تُرضعني سلافةً حارة ثقيلة، صبواتي تذهب إلى البطن الخصب الوثير والأرداف العريضة السمراء، أما الخمر المشعشعة الحقُّ فليست مرئيّة ولا محسوسة، ولا تنبع إلاّ عن هذا الغِنى الفاحش الذي أُصلُ في نشوةِ سكرِه إلى غايته، وما لهذا الأمر من غايةٍ ولا حَد، فما من لذّةٍ أعرفها إلاّ وراءها أوفى منها وأتمّ. متاهات الفِتنة والمعرفة لا أرعوي عن الضرب في مسالكها ولا أخشى الهُلك فيها.

مددت يدي ومِلْؤهما لذاذاتُ الهوى وعلقم الموت معاً. مَنَار عقيدتي بلا خجل. هفيف الحمام الذي يغيب وما بلغت شيئاً. ظلاله قَطَعتها حافةُ الأفق الحادّة. سكران من الملء وسكران من العوز، سكران بالتحقّق وبالطلب، بالنعمة وطعْن الحرمان، سواء، بلا صحو.

لماذا أحببتكِ؟ لماذا؟

عُمدة الحب اللُقيا لا الفراق.

لكني لا أفرّق، من سُكري، بين الوصل والنَفْرة، وما من إفاقةٍ لي على القربِ، وعلى البينونة، معاً، وما تزول أشواقي عند التلاقي والمعانقة، بل تفيض.

فأين المفرّ؟ وأين الملاذ؟

قلت لنفسي: لا يكون لك، منك، شيء.

وكنا نعبر كـوبري السلطان. الأنـوار العاليـة تتعاقب وتسقط عـلى حِجرها داخل سيارتها الفولكس واجن، وتُضيء في ومضاتٍ متلاحقـةٍ لحمَ فخـذيها السمـراوين، مفتوحتـين قليلاً، حـاشـدتـين بشهـوتي. انحسر الفستـان الخفيف قليـلاً إلى أعــلى، وعليه علبــة السجـايـر الـ «ستـايفِيسِنت» وشريط الكـبريت منـزوع الغـلاف. أُلتقـطهـا من الوهدة الطرية المتحرّكة أهـونَ حركـة في تركيـزها عـلى قيادة السيـارة والتحكّم فيها، وأشعل، وأُنفثُ ملء الصدر من دخانِ أولِ احتراق، وأعـطيها سيجـارتها مبلّلة أهـون بلل بأثـر نيّةٍ قبلة متـطايرة من عـلى الحافّة المستديرة.

وعندما عبرنا الكوبري كان الشجر المتكاثف على رأس النيل يأوي النُقَط الغافية البيضاء مطوية الأجنحة.

أنـوار الشط الآخر تلوح وتختفي تحت سَعَف النخيـل بين المئـذنـة والمسلّة الصغيرة الخجول، منسيّة تقريباً.

وعـلى ضـوء النجـوم رفعت إليَّ وجههـا الخمـري المـدوّر، قنـاعـاً مصقولاً كامل التدوير، لا تهتزّ فيـه خلجة، وكـانت قطرات الـدموع تنـزل من عينيها الـواسعتين المفتـوحتين، كـل قطرة مـدوّرة ومنفصلة وتنزلق بنعومة على صفحة الخدّ وتنـزل إلى منبت النهدين المفروشين بـراحة في فتحـة البلوزة الواسعـة، دون صـوت، دون كلمـة. كـأنها وحدها تماماً. وما زالت تمسك بعجلة الفولكس واجن وتسيّرها بحركة آلية.

رمقتني لحـظة واحدة. بنـظرة حبٍ لا مثيل لهـا. سرعـان مـا عـاد القناع نظيفاً كامل البراءة.

رأيت أن أشـواقي سـوداء الجسـوم، يـرقصن حـواليّ، عـاريـات الأثداء، والموسيقى الحوشيّة تحتدم ثم تختنق. أوصالهن تعلو وتـرتمي، أشرعة أجسادهن مبسـوطة مفـرودة أمام عصف الشهـوات، تهبّ بها الأنواء وتنام على الريح الرُخاء.

يتمدّدن ينتصبن، متوتّرات بين أنقاض أحلام غابرة مليئة بالدموع. الأرض تسـوخ تحت الأقدام الـراقصة مـا تكاد تلمس تـراب الغيـطان المحترق المنثور بأوراق الذُرة الجافة.

ينحين على قبـور الآلام البائـدة، كأنمـا بحنان، ثم يقمن لحـظة، شواهد مائلات في فضاء سحيقٍ خاو، ثم تنهار أحجارهن.

شعرهن الوحْف كثيف تغوص فيه الأيام القديمة وتعود.

لأشواقي أجنحة طويلة تتماسّ وتـتراكب وتتحاضن، لحمهـا غضّ وقوي متماسك.

يـدرن الآن حولي في حلقـة مقفلة، وجوههن زنجيّة الشفاه، تـأوُّد أردافهن حادّ السرعة متلهّفٌ خاطف التحوّلات، ثم هـو رضيٌّ ساجٍ يكاد يكون صامت الرقرقة.

طيـور العشق راسيـة في وسط الحلقـة، جـاثمــة، ثـابتــة، ثقيلة كالصخر وصافية العيون كالماء، ومتّقدة الأحشاء.

ثم وجدت أن شجرة البانسيانا الضخمة الوارفة التي تقتحم شرفـة البيت القديم وتغرقه بغصونها العريضة المثقلة، تحترق.

النار ساطعة ولامعة ولها وشيش وصوت مغرّد.

النـار على أطـراف الشجرة فقط، تتّقـد في شُعَـل دائـريـة صغـيرة ململومة على نفسها.

أصبّ عليها الماء بسطل أحمر من البلاستيك كنت وجدته على ذلك الشاطىء في حلمي الآخر.

كنت قد طلبت المطافىء لكنها لا تجيء.

المياه القليلة تسقط على جدار البيت الذي سخن الآن من النار، أحسّ وقدته تصعد إليّ. المياه لن تكفي للإطفاء، النار سوف تمتدّ وشيكاً وتلحق ببقية الشجرة وتدخل إليّ من الشرفة وتنفذ إلى داخل البيت. ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ هسيس صوت النار لا يكفّ، والغريب أنها ما زالت مضمومة في كريات مدوّرة متلظّية باللهب حول أطراف الغصون فقط، كأنها شراشيب مشتعلة على ضفائر البنات المهتزّة الطويلة. صوتها، صوتها مُلحّ بثباتٍ واطّراد وصوتُها هو وحده يعلو. تقترب، بنذيرٍ لا يطاق.

قلت، أصاحِبُ سيدي الجنيد وأمشي على خطاه: إنني مكثتُ فترة وكأنما السماء والأرض تبكيان لحيرتي وحبّي. وحمائم أشواقي تطير عني. ثم أصبحتُ وكأنما أحترق من غيبتها فيّ. وهاآنذا الآن أسكت. لا أقول شيئاً بعد عن البكاء ولا عن الحريق. ولا يبقى لي إلاّ الموتُ الثاني، يقينُ العطش.

١٤ مِسْرَى ١٧٠٥
٢٠ أغسطس ١٩٨٩

محطة السكة الحديد

(١)

كانت خبطات القطار المنتظمة الرتيبة قد اتخمت نفسه، بدقاتها المستمرة. لا تتوقف، لا تتريث، تتقدم دون وهن في تصميم دائب يأكل من نفسه امتدادات طويلة، في طريق لا ينتهي. وكان قد نام قليلاً، وشبعت دماؤه، في تهويم النعاس، من هذا الدق المتواصل. وبه شيء كأنه سكر وخدر من هذه الضربات العنيدة التي لا تني، مدفوعة إلى الأمام، في عزم لن يقف أمامه شيء.

وفتح نافذة القطار، وأفلت لحظة من الضوء المصفرّ المترب الذي يسقط في العربة المزدحمة، يهتز كسائل كثيف مشبع بانسانية متعبة هدّتها هزات الرحلة المتعاقبة. وهبت عليه من الخارج ريح الاسكندرية الممدودة أمامه تحت سماء الليل، والقطار يهتز مندفعاً يدق الأرض إليها في مجهود أخير. وأنوار الاسكندرية تومض مرمية على انحناءة خط طويل، واعدة بأماني غامضة، براحة الوصول ودفء المدينة. ونسمة خفيفة ملحة هينة تأتيه عبر الخلاء المعشوشب بالحشائش الصحراوية الطويلة، فيها عزاء ينفسح له الصدر، ويقبل طراوته.

عاد إلى مقعده، وكان يخيم على العربة جو ثقيل مكتوم، وقد خلع

العسكري الضخم الذي تكـوم أمامـه في سترتـه السوداء، طـربوشـه واكتفى بطاقيته الميري من العبك الباهت تشد ما بقي من شعر شائك رمـادي خشن على صلعتـه المتينة، وقـد سكت الطفـل الـذي يلتصق ببطن أمه في ملاءتها الريفية وراح الآن يمص ثدياً جـافاً مهـدلاً مجعداً لا تكـاد الملاءة تخفي بـذاءته، ومـا زال بائـع السوداني يمـر بالقـطار، حاملاً قفّتـه وقراطسيـه الملآنـة، والشيخ الأعمى الـذي يبيع النعنـاع وآيـات القرآن وعـدية يس، والعيـال العفاريت الـذين هدهم التعب وبحث أصواتهم وما زالوا بعد ينتقلون من عربة إلى أخـرى في خفة، ينطّون وينادون على الليمون للعطشان والكاكولا والببس، ويقـرقعون عـلى الجرادل المليئـة بالمـاء والزجـاجات. وقـد سقطت الـرؤوس على المقاعد الخشبية في استسلام كأنها لم تعد ملكاً لأصحابهـا بل أصبحت ملكاً لقطار يدق بهم الأرض في تصميم، إلى غاية لن يبلغها أبداً.

تعبت عيناه من النور المسلول الشـاحب المعلق كالـتراب في القطار المهتز إلى الأمام بسرعة لا تتناقص، وهو يكاد يسمع مصمصمة شفتي الولد الذي يرضع من بز ناشف، وتنداح في نفسه رغبة في أن يعـطي من نفسه لهذه العلقـة الانسانيـة الصغيرة التي مـا تني تتطلب الحيـاة، رغبـة حنانـة كأن نفسـه قد ذابت في وسط هـذا الجمـع من النـاس، وامتزجت بهم من الخـارج، بعصـارتهـا الثقيلة. أذابتهم معــاً تلك الساعات الـطويلة التي قضوهـا في القطار فكـأنهم ألصق من الإخوة: الأفنـدي الرث الـذي يجلس إلى جانبـه مع حقيبتـه القديمـة المربـوطة بخيط، فـلا شك أن قفلهـا قد خـرب. وحتى العسكري الـذي يشخر فجأة في نومته المليئة، ويتنحنح من كرشه، ويعدل من جلستـه القلقة عـلى خشب الكرسي. وهـذه الأم الريفيـة الأصل بثيـابهـا ومـدورتهـا

البلدية على عظام وجه مرهف بشهوات حادة لا رضاء فيها، بل هي لهفة ثاقبة لم تعرف الشبع قط، حتى مع الولد. والصعايدة والفلاحين الراجعين إلى المدينة وقد خففت الحياة قبضتها عليهم لفترة الرحلة القصيرة، ولكنها تركت آثار هذه القبضة القاسية على الوجوه الخشنة العميقة الأخاديد، على الذقون النامية الشائكة لم تحلق بعد، والثياب الرثة غير النظيفة تماماً على أجسام مفتولة أو منحولة، لا تكاد تمت هذه الثياب إلى أجسام أصحابها بصلة، كأنها ملقاة عليها، غريبة، غير مستقرة، وغير متصلة بها. واحتدامات هذه الأجسام قد همدت لحظة، والهواء يدخل من الأفق الصحراوي المنتهي إلى البحر، وينفذ في زهومة الكثافة الانسانية في القطار، فيكملها ويعطيها معنى غير واضح.

خفتت سرعة القطار وتغايرت أنغام دقاته وهو يصطفق بالشبكات الحديدية من القضبان ويمر تحت علامات متباينة في أعمدة السيمافور، والبيوت تجري إلى جانبيه. وفي العربة نشاط فجائي والقفف تنزل من على الرفوف، والحقائب والملاحف والمراتب واللفائف المربوطة في الخيش، والمرأة الريفية ترفع طفلها إلى كتفها فيستأنف صراخه وتطلب من الأفندي الرث المنهوك أن ينزل لها القفص والقفة يأفندي وحياة النبي، فينشط وهو ينزل الأحمال الثقيلة ويترنح تحتها وهو يكاد يقع فيلتصق بالمرأة، عن غير عمد، في مجهوده، ويطيب له هذا الالتصاق لحظة من زمن، والعسكري يشد حزامه ويتنخم في منديله الأحمر الباهت ويضع طربوشه على الطاقية الميري العبك. والناس يقومون ويتزحزحون ويفتحون الشبابيك ويقفون استعداداً

للنزول وعلى شفاههم ابتسامات متعبة، ويلغطون مع بعضهم البعض في شيء كأنه فرح طفلي بالوصول.

أخذ القطار يبطىء أخيراً وهو يدخل المحطة المنيرة، ويصفر فجأة تحت السقوف الزجاجية المرتفعة في دوي مظفر، ويقرقع ويصلصل وهو يقف في فخامة، كجواد أصيل يرفع رأسه عند الوقوف، وتقاطرت جماعات الشيالين بأرديتهم الزرقاء وأحزمتهم الجلدية العريضة المتينة، يمدون أيديهم إلى النوافذ ويتلقفون رزقهم من القفف والشنط، وصغار الصبية خلفهم يتزاحمون على الأفندية والسيدات ويشدون حقائبهم: شيال، شيال، والناس يسرعون في الأضواء اللامعة. وأصداء القطارات تتردد في المحطة كأصوات تتنادى في رنين مثير.

وهو ينزل إلى الرصيف ويستعيد مقدرة ساقيه على المشي بعد الخدر الطويل، ويجد أمامه من بعيد ركاب البولمان والدرجة الأولى في أناقتهم الملونة وحقائبهم الجديدة الرشيقة يسرعون خارجين، وخلفهم يهرول الجمع المختلط من الانسانية الصغرى المضطربة بين الأولاد الصاحين من نومهم يتعلقون بآبائهم وأقربائهم، وهو يحس المدينة خارج المحطة بشوارعها الهادئة الخالية تقريباً، مستريحة آمنة، مضيافة.

اتخذ طريقه إلى سلم النفق الأرضي للخروج بعيداً عن الزحمة على الباب الضيق، أو هكذا علل لنفسه سلوكه، وإن كان قد دار بذهنه، من بعيد، أن النفق لا يفضي إلى الباب، بل إلى رصيف آخر. لكنه لم يصغ لهذا الصوت الصغير البعيد.

ونشق على السلالم العريضة ريحاً باردة أرضية، من النفق المنير الخالي، والبلاط الأبيض يلمع على حائطي السلم، مصقولاً ينزلق عليه النور كما ينزلق ماء خفيف رائق. وهو إذ ينزل وحده على الدرجات العريضة يحس أنه يدخل على عالم آخر هادىء، تتجاوب به أصداء بعيدة متطاولة في الفراغ الأجوف، وتتراشق الجدران الملساء بهذه الأضواء ترسلها الواحدة منها إلى الأخرى إذ ترتد عن سطوحها الناعمة، عبر مسافات خاوية. وهو يحس سعادة غريبة توسع من صدره، لأنه وحده في هذا العالم السفلي المضيء المحدد الجوانب، المنسرح تحت الأرض في مستوى آخر.

وفجأة امتلأ عليه هذا العالم، في فراغه. وأحس شيئاً وراءه، خطوة خفيفة مسترقة، نغمة، نفحة هواء، لا يدري. ولكن هناك حضوراً يتربص به من خلفه، لا شك، شيئاً يرقبه، كأنه يرصده بعينيه الخفيتين، وينتظر حتى يوقع به، حتى يطبق عليه. وأحس قدميه تتجمدان تحته، ونظره ثابت موجه إلى الأمام، وهو لا يجرؤ على النظر إلى خلفه، بل لا يستطيع. ينزل السلالم ببطء، ويشعر بهذا الغريب يسوده من أعلى السلم، وراءه. وهو يريد أن يتحقق من هذا الذي يثقب ظهره ببصره، ولا يستطيع، بل لا يجد أدنى قوة على رد بصره إلى الخلف. والسلم خلفه خاو عريض مرتفع صاعد إلى أعلى، تنزل منه رياح الخوف. وهو موقن بأنه مراقب، بأنه واقع في قبضة بصر ذي نوايا، ولا يستطيع أن يخرج من هذه الشبكة غير المرئية.

واستدار فجأة إذ وصل إلى أرض النفق، وداراه الحائط، ودخل في النفق الطويل الممتد. وأحس أمناً وروحاً، إذ أفلت من هذه العين

الواقعة عليه، تنفذ إلى كيانه من الخلف، في تصميم غرضها الذي لا يحيد.

والمصابيح الكهربية القوية تملأ الممر بنور ساطع على الأرض السوداء، والحيطان تقوم على جانبيه ببلاطها الأبيض الناعم، صقيلة لزجة، لا يلصق بها شيء.

وأخذ يحث خطاه، وقد استشعر حريته من هذه النية التي كانت تحدق به، وأحس انفساحاً أمامه في النفق المنير الطويل الواسع الجنبات المنفتح عن سلالم جانبية متعاقبة كثيرة.

وأخذت عيناه بالقرب من نهاية النفق، تحت مصباح كهربي، شيئاً مختلطاً متلاصقاً، كائناً فيه من البشر شيء، لولا أنه أكثر من كائن بشري. تسقط عليه من المصباح حزمة مخروطة ساطعة من نور لا يرحم، وقد اختلطت فيه الأذرع بالأكتاف، تحيط ببعضها البعض، وضاعت فيها رأسان، في امتزاج غامض المعالم، بين كتفين ملتصقتين، واختفت العيون في حمى ظلام داخلي خاص مسدود على نفسه، تحت عين مفتوحة من المصباح الكهربي المثبت فوقها، ينصب منها نور صلب ثابت الحدقة، وقد جمدت الثياب الرثة المضطربة، وسكن كل شيء، سكون مرعى من العشب الناعم الرقيق به هياكل ونصب عريقة، تعاقبت عليها عواطف حارة متربصة، وليال صافية من الوحشة، ولا نهاية من سماوات الظهر الخالية.

وقد أوقعه هذا الكائن في فتنة لا زمن فيها، وهو يتجه إليه كالمأخوذ، كأنه يطيع مصيره في هذا النفق الساطع تحت الأرض تتجاوب فيه أصداء ليست من العالم وإن كانت توحي بمعناه الخفي.

وترن خطواته في فراغ النفق، وهـذا الشيء الذي يلتصق بـالحائط الأبيض اللزج يتحدد وتتضح معالمه.

ولكنه لم يستطع أن يحـول بصره عنها، هـذه الطفلة وشيـال نحيل ضئيل عنيد الوجه، وما زالت بيدها المرمية على ظهـره أوراق يانصيب قديمة يجمعها مشبك حديدي صدىء، وثيابها السوداء البـاهتة الخلقـة تتجمّـع في طيّـات مضـطربـة تحجّـرت كـأنها من تمثـال أثـري قـديم مصقـول الحجـر، يقف في نشـوة غـائبـة. ويـدهـا مـرميّـة بـلا حيـاة على قميصـه الكاكي المشعث القـديم، على ظهـر جاف انحنت عظامه كأنما نضب منه ماء الحياة، يتحدى الجفاف في تضحية حانية. وهما يلتصقان ببلاط الجدار الأبيض، كأنهما علقتان جافتان لا تصـلان أبداً إلى الدم الذي تبحثان عنه. ولا شيء يعنيهما، فكأنه لم يمـر بهما، والرؤوس مختلطة المعالم، مدفونـة في رائحة الشعـر الملبد الكثيف بـين قماش الثياب القديمة المـتراكبة الـرقع في جمـود منسي، لا يهتم بأحـد ولا يعنى به أحد، ويسطع عليه نور وحشي لا ادراك فيه.

وارتقى درجـات السلم إلى رصيف المحـطة، وفي جـوفه فـراغ متداعي الجنبات، والأرصفة خاوية تمتد بينهـا القضبان آتيـة من أبعاد سحيقـة، في خطوطهـا الـرفيعـة المتجـاورة المتشـابكـة، بـين تيـه من الأعمدة والاشارات. والقطارات في الباحة تحت سماء الليل الباهت، ساكتة صامتة مظلمة، كحشرات ميتـة بيضاء مغـبرة البياض منسيـة، والقـطارات ملتصقـة بـالأرصفـة، عليهـا تـراب الليـل تحت السقف الزجاجي المسود من الهباب، والمحطة كلها ساكتة نائمة، وقـد هدأت فيها الحركة هدوءاً غريباً، ساعاتهـا تحدق إليـه بعقاربهـا التي توقفت، والأسوار الحديدية القصيرة تحيط به، وصوت حشرة ليلية يتردد صغيراً

من أحواض الزهر الغامضة في الليل، تحت السور الحجري القـديم، وجـرس الترام يـرن بعيداً من شـارع المحطة في الخـارج، كأنـه يسير وحده بلا ركاب في شوارع مدينة أقفرت من كل ساكنيها.

وأحس نفسه محبوساً، مخنوقاً، مضيقاً عليه.

يجب أن يفلت إذن، يجب أن يخرج، يجب أن ينطلق من بـين هذه القضبان، يجب أن ينتزع نفسه من تحت هذا السقف الزجاجي، ومن نظرات هذه الساعات الـواقفة، يجب أن يخلص نفسـه، أن يخرج من الباب.

واندفع يجري بالرغم منه، لا يملك نفسـه، صغيراً في هـذا الفراغ الليلي، نحو باب الرصيف.

وجابهه على الباب الصغير ثلاثة، أربعة، خمسة، من عمال المحـطة جـالسـين ينـظرون إليـه في هـدوء مـتربص، يسـدون عليـه المخـرج ينتظرون منه تذكرة السفر. فلن يخرج إلا ومعه التذكرة.

وهبط قلبه في حفرة لا قـرار لها، وقـد تيقن دفعة واحـدة أن ليس لديه هذه التذكرة. لن يخرج إذن، لن يستطيع الخلاص. فليس لديه تذكرة. وهذه الوجوه الخشنة الغليظة القريبة تحدق إليه بعيونها المدورة الجـاحظة، وغضـونها الجافـة السمراء، وكلهم لم يحلقـوا ذقونهم هـذه الشائكة. هذه الوجوه لا يهمها من هو، ولا تعرفه ولا يعنيها شيء إلا أن تنـال التذكـرة. وحللهم الرسميـة السوداء ـ ولعلهـا زرقاء قـاتمة ـ تصطف عليها أزرار نحاسية كابية، كـأنها صفوف أخـرى من العيون المعدنية تنظر إليه، وتنتظر.

وقفل راجعاً يجري، يجري كأن حياته كلها في خطر، كل لحظة يقضيها

الآن في المحطة تزيد من هول جريمته، تثبت إدانته، وتقرِّب لحظة الحكم عليه. لن يغتفر له، لن يغتفر له أن ليس لديه تذكرة. يجب أن يهرب، يجب أن يفلت، الآن.

وهو يجري كما لم يجر أبداً في حياته، والمحطة واسعة فسيحة خاوية، ليس فيها شيء عداه، يحاول الافلات بنفسه، والأرصفة تمتد تحت قدميه، كأنها تتخلق وتتمدد خاصة له، كأنها طريق لم يوجد إلا لأنه يجري عليه، بل هي توجد من لحظة إلى لحظة، تحت قدميه. وفي كل اتجاه يندفع إليه يجد نفسه على الرصيف الضيق نفسه، والقضبان نفسها تحت الرصيف، والأرصفة الأخرى نفسها تحاذيه، أينما اتجه، تتمدد حواليه. وإذ يقترب من باب الدرجة الأولى، وقد بدا له من بعيد خالياً، يجد أمامه الوجوه نفسها، والعيون نفسها تحدق إليه، تنتظره، في غير اهتمام كبير، ولكن في تصميم، لن يخرج أبداً إلا إذا قدم التذكرة، أبداً. وليس معه تذكرة.

وهذه الحمى من الجري لا تنتهي، وقدماه المندفعتان أبداً إلى الأمام، تحملانه مرة أخرى إلى رصيف الدرجة الأولى، وهو يتعثر، ولكنه يطير في جريه، كأن هذا الحجر الذي يكاد يتعثر به قد تطاير تحت قدميه فجأة، ولم يعد فيه عائق ما، كأنه قد اخترقه دون عناء. ويصل أخيراً ينهج، ويمسك بالسور الحديدي القصير، وعيناه معلقتان بتلك الوجوه على الباب، ويتعلق بحاجزه الرقيق المهتز، يتعلق به كأنه لن يفلته قط، في عنف واصرار، ويداه قد تشبثتا بالحديد المزيل، واندمجتا فيه، وأصبحتا قطعة منه لا تنفصل عنه. وهو يحدق إلى ساحة المحطة الخارجية، لكنه لن يستطيع أن يتجاوز هذا السور، وهذه الوجوه قد اتجهت إليه، صامتة فاهمة تنظر إليه من

غضونها الخشنة، بذقون غير حليقة كامدة الزرقة، شائكة.

وأحس القطار يصفر وقد وصل من رحلة بعيدة، والأنوار فرحة بهيجة قد غمرت المحطة كلها، والساعات تدور، والناس يتدافعون ويتزاحمون في انفعال الوصول، وهو يتعلق بيد أمه ينزل من القطار في زحمة الناس، ويرفع إليها وجهه وقد تعب من رحلته، وهاجه وأسعده انتهاؤها. وأبنية المحطة الكبيرة عالية تتجاوب بطنين الكلام والضحكات وصفير القطار وقلقلة العجلات، ويسمع صيحات الشيالين وجريهم بين الناس في الزحمة، وأبواق التاكسيات تملأ الساحة الخارجية الفسيحة بلجاجة ندائها، والخناطير تتقارب وتتزاحم وتقطع الطريق أمام بعضها البعض، والساحة الممتلئة بالناس الخارجين تسبح في الضوء الباهر المريح بعد شحوب القطار.

وتلفت خلفه فجأة، وقد تقبض حلقه من المفاجأة، والخوف. لقد ضاع، تاه. وهو لا يجد أمه إلى جانبه. لقد فقدها في الزحمة. والناس يخرجون متتابعين، سيل لا ينقطع من الناس الغرباء. وهو وحيد صغير. لا يعرف الطريق إلى البيت. لا يعرف الشارع. لن يصل أبداً إلى البيت. لن يجد أمه ولا أخواته.

ورجع جارياً يتخبط في سيقان الناس المندفعين إلى الخارج، ويتلفت من بينهم. وقد أخرسته المفاجأة ولم يستطع أن يصرخ. وهو يريد أن ينادى. أن يزعق. أن يجده أحد. أن يجد أحداً. لكن أحداً لا يصغي إليه. أحداً لا يعرفه. وهو لا يعرف أحداً. وقد ضاعت منه أمه. فقدها. ولن يعرف الطريق أبداً. سيتوه إلى الأبد في هذه المدينة الرهيبة الغامضة التي توجد خارج المحطة. سيتوه بين الترام

والعربات والسيارات والناس. ستتخبط بـه الشوارع الـطويلة المخيفة التي لا يعرف أسماءها. ستتوالى عليه جدران البيـوت. كلها غـريبة. كلها صامتة. كلها مجهولة. ولن يعرف بيته أبداً.

وكم هو ضئيل في زحمة كل هؤلاء الناس. صغير. تائه.

وأحس العرق السخن يغطي وجهـه، ويد الخـوف تمتد إلى داخـل صدره وتقبض على قلبه، والضياع يحدق بنفسه الطفلة. وقد فقد كل شيء.

وهو يجري متخبطاً بالناس لا يرى شيئاً من خلال الدموع السخنة التي تمـلأ عينيه. وهـو لا يعرف إن كـان يصرخ فعلاً فـإنه لا يسمـع شيئاً. لكنه يحس نفسه يصرخ مناديـاً أمه. ويضيـع صوتـه في دبدبـة الأرجل التي لا تنتهي، متتابعـة خارجـة من المحطة، ليس بينهـا أحد يتعرف عليه. يحس نفسه يصرخ بملء روحـه المتطلبـة حبها المفقـود، يدعو يداً تمتد إليـه بالأمن والإلفة، يصرخ منـادياً من وحشـة الضياع المقفـر الذي يحيط بـه في امتـدادات معتمـة لا آخـر لهـا. وينهـج من الجري والرهبة والبحث عن الخلاص. يصرخ ولا يعـرف هل يسمـع صرخته أحد، بـين كل هؤلاء النـاس. يجري في وحشـة الضياع. لا يفتأ ينادي.

(٢)

كانت دقات القطار الرتيبة قد اتخمت نفسه. كل شيء قد انحصر الآن في هذه العربة التي تهدر وتهتز. أمواج ضجيج القطار الآلية تصطدم وتتقلب في ايقاع رتيب محسوب تحكمه قوة غير عقلية. دفقات من كتل الصوت الصلبة ترتطم بأجسام الصخور الناعمة الرملية. والعربة المكتظة بالناس محصورة بين ضربات الحديد المتشابكة تعجنها وتغوص في لحمها وتدفعها دون أن تهن، في هدير الصدمات المتقاطعة المتراوحة، أبداً إلى الأمام.

تململ في الزحمة، وضغط براحة يده المبسوطة على زجاج النافذة المغسول بماء آثار تراب جاف وذرات رمل بيضاء مغبرة في الأركان. وقاومه الزجاج، لا ينزلق في مجراه الخشن الصدىء، ثم أفلت منه فجأة ينزل، ووقع، سكيناً مثلومة تهوي إلى قاع قلبه في خبطة مكتومة. واندفع الهواء الحار، وصفا سطح السماء المعدنية التي تطبق على الأفق، ودار القطار أمامه في انحناءة ضيقة، جلجلة عجلاته ثرثرة دؤوب مختلطة الحوار، مصممة، لا تنقطع، في الصمت الخارجي، على قضبان هشة رقيقة ممدودة كالأسلاك. فوق الجسر المرتفع. أثر جرح متورم على خد الصحراء الجاف.

استدار، يتعثر في السبت المملوء المقبب المغطّى بملاءة سرير غير نظيفة مربوطة بحبل غسيل مشعث، وخوص السبت يحز في ساقيه اللتين لا تستقيهان من ضيق المكان. وعندما أسقط جسمه، محشوراً، ليجلس، كان جاره قد استراح قليلاً في جلسته، وأتاح لعظامه العجوز أن تنفرد قليلاً تحت جلبابه الأبيض الفضفاض الذي يسف طرفه تراب أرضية العربة، فلم يكد يستطيع أن ينزلق على ألواح خشب مقعده حتى أوشكت كتفه أن تحتك بالوجه العظمى الشيخ الذي تهدل جلده في طيات مستسلمة، ولكن عنيدة، وصلبة.

- خد راحتك يا بني. لا مؤاخذة آدي أنت شايف، نستحمل بعض ساعة زمن.

كانت العينان الترابيتان المحفورتان مثبتتين عليه، ابرتين طويلتين، مغروزتين في عريه النيىء الخام، تأتي من ورائهما عينان أخريان، كأنهما هما مرة أخرى، من وجه حفيد الشيخ الذي يلتصق به، في كره، على خشب المقعد، هو حفيده بلا شك: خطوط الوجه نفسها، فجة، بريئة، لم تقع عليها بعد صدمات تلين من بدائيتها الأولية أو تقسّيها، ولكن هاتين العينين فيهما رفض، لا مبالاة، أو استهتار. والولد قد اتسخت فانلته المقورة القصيرة الكمين، وأمسك بحذائه، من غير جراب، في يده، ووضع رجليه الهزيلتين، احداهما تحت الأخرى،على خشب المقعد، قائمتيْ طائر «أبيبس» مرميتين بعيداً عن الماء، في لباسه الطويل البفتة الذي يصل إلى الركبتين. هذه ملابس الرياضة في مدرسته، وزينته في السفر والفسحة والعيد والمناسبات؟

أحس العرق الخفيف على وجهه يسفعه هواء الغروب الذي يهبط من السماء على الصحراء الخالية.

في صدره الحجر المشع الساطع، نجمه الصلب الشفاف، يقطع الظلمة في داخله بألف سكين باردة كالبلسم. في بؤرته المتقدة مركز ثقل الكون، سر التوازن والعقل. حوله مدار الحلقة المتوهجة التي تغني فيها موسيقى فلكية.

ووحل ذهنه في حسابات الحفلة، دون أن ينتبه لتغير مراكز الثقل في وعيه، واجراءات العقد، ومصاريف علب الملبس، وارسال آخر بطاقات الدعوة، وترتيبات العشاء والسهرة.

ويدها الرخصة السمراء الطويلة الأصابع عصفور وديع، ودقيق، وسخن، يحس رجفات نبضه بالخوف، يكاد يكون عارياً، في يده.

الصبح استلم الدبلتين الذهب من الجواهرجي، وبارك له الرجل بابتسامة زيتية غائبة.

كان منقوشاً عليهما التاريخ. غداً يبدأ دوران الكون بعد جمود وقفة لا تاريخ لها.

من على البعد مراوح الآبار تدور على أبراجها المخروطية العالية الرقيقة الأسلاك، تشق لنفسها دوائر في الزرقة الصدئة. وتحتها بيوت من حجر أبيض مكسورة الجدران، وخيام الأعراب الواطئة مطبقة على الأرض، قاتمة بقذارة عتيقة، ممزقة مرتوقة بألف رتق، وشجيرات التين القميئة الناصلة الترابية تتناثر في أرض صفراء، كابية مضلعة بأحجار غير منتظمة ورمل متصلب.

وعندما استدار القطار من جديد، تشبث ثلاثة جنود أو أربعة، ينامون على أرفف العفش العلوية، بالحافة الخشبية، بحركة غير مقصودة في نومهم، اسندوا رؤوسهم الحليقة إلى أيديهم المكومة،

وأحذيتهم السوداء الضخمة، عليها طبقة رمل باهتة، تكاد تصطدم بسقف العربة، بين القفف والحقائب واللفف والصرر والسلال. المصابيح في السقف عيون حافظة، زرقاء متورمة منطفئة، يسيل نورها الشحيح على النباتات الانسانية المصوحة، تحت جفاف الرمل الكابي، في حبس مشتل ساخن معدني يصطفق بدقٍ مثابر عنيد.

ارتفع، فوق ضجة العجلات التي لا تهدأ، صراخ طفل، محرق لا ينقطع، من المقعد المواجه. والمرأة لا تني تردد بصوت آلي، متعب، كأنها لا تلقي بالاً لما تقول ولا تعلق عليه أملاً ولا تنتظر نتيجة: طب بس يا واد اسكت بقى طب بس يا واد اسكت بقى، بملابسها السوداء الضافية، النازلة حتى حذائها الرجالي، وشعرها المغسول الأسود تحت المدورة الزرقاء، ووجهها النحيل الصافي، وهي تنظر إليه، تقيسه وتزنه وتبلو معدنه، برغبة حادة مباشرة، بلا استعطاف ولا غواية، في داخل خرافة خاصة بها لا تحقيق لها.

وما زال الأفندي أبو جاكتة وجلابية، حتى في نور المغرب المتهافت الخابي، يحسب ويضرب ويجمع ويطرح، في مذكرته الصغيرة، ويبل طرف القلم الكوبيا بلسانه، بحركة محتاطة تكاد تكون مرفهة متشامخة، ويتمتم بأرقام محدودة العدد ولكن لا نهاية لها فيما يبدو، لا شأن له بأحد ولا بشيء في كابوسه الضيق الخاص المحسوب.

والست المترهلة اللحم، أم فستان مشجر وطرحة مقموطة على جبهتها المدورة العرقانة، تمص حبوب اليوسفندي بشفتين مطبقتين شرهتين، وتلقي بالقشرة إلى الأرض وعلى اللفف والسلال، وتقذف بالبذور من فمها الباهت المسدود، فيقع متناثراً على ملابس الناس

وأرجلهم وعلى الشنط والمراتب المدورة المحزومة بالحبال والخيوط.

من ورائه وإلى جانبيه وحواليه الوجوه التي خدرتها ضجة السفر، والعيون المطاردة الهاربة إلى كهوف محاجرها، والأفواه الفاغرة تتثاءب بلا خجل وتنطبق، والعظام الحادة المرهفة المفاصل، واللحم المنكفىء على طياته تحت الجلاليب والعمم والشيلان والطواقي والقمصان الأمريكاني المخططة والملونة والبنطلونات الرمادي والكاكي المتهدلة ورائحة الحصار والرمال الجافة ووحشة مغيب الشمس. وهو غارق في هذا الموج منهم، ليس طحلباً بل جذوره ضاربة في صخرهم، لا انتزاع لها.

هي ساعة زمن ونصل. أبداً، ما زال أمامنا سفر لا ينتهي.

عندما أفلتت عيناه من أسر العربة التي تغص بحياتها الكثيفة المتخثرة كان القطار قد دخل إلى حيث دفنت الشمس نفسها وراء امتدادات الملح الجاف الفضي، والقضبان أمامه تشق الفراغ: خيطين معدنيين على صفحة مياه قليلة الغور، بها أمواج صغيرة متلاحقة هي رصاص بارد ذائب يترقرق الهواء قليلاً في قوامه الثقيل. وينبسط الماء، بعيداً إلى الجانبين، تحت عجلات العربات الحديدية المندفعة في صخبها المصمت المتلاطم يدق نفسه بلا هوادة. أحراش البوص الكثيفة تغوص شيئاً فشيئاً في الطين القريب تحت طبقة الماء المعدني الراكد المتعفن، وتهب عليه الرائحة.

رائحة التحلل النباتي العتيق الزخم، عضوية، فاسدة، عطنة، خمت بها أنفاسه، ترفضها وتنشقها رغماً عنك، تأتي من تحت جلد الطحلب الأخضر المجعد، جلد امرأة عجوز متصابية، مدهون بزيت

زنخ، تلبدت طياته فوق سيولة الماء القليلة تنكسر طبقته هنا، هنا، وهناك، فيلوح تحتها الماء الساكن والطين الرخراخ، ثم تتجمع، تحت جدار العربة المنطلقة، في دغلات ملتفة شرسة ضاغطة من الخضرة القاتمة الزلقة الملمس. والرائحة تعنف به، وتفوح في سطوع عفنها الذي لا يطاق، من تحت عجينة الطين المشبعة بنضح الدسم، من تحلل المخلفات العضوية، طوال أزمان سحيقة. تضرب فيها الشمس ويتخللها الماء وينصب فيها لحم النبات الأخضر يموت على مهل في قبوره المائية المفتوحة، وتتراكم جثثه الفاسدة واحدة فوق الأخرى وتتكدس، مكشوفة بذيئة، تنفث عطنها الكثيف بلا نهاية، من تحت مرآة مائية مغضنة الأسارير تعكس صخر السماء البرونزية.

ـ يوه.. ما تقفلوا الشباك ده يا خواتي!

هذه المرأة الأم كأنها قطّة بعينيها الحادتين اللتين لا تعرفان إلاّ وفاءً لشهوتها أبداً، ألا اخاء لابنها قط.

وضحك الشيخ عن فم ككهف لحمي قاتم الحمرة، وهو يهز ذراعه الضاوية في الكم الأبيض الفضفاض.

ـ معها حج يا بنى.. يالطيف!

ووقف مرة أخرى، يقبض على الحافة الخشبية السوداء من دسامة قديمة جفت وتصلبت وتركتها أيد كثيرة ناضحة في شهوة القبض والتصرف، ويجهد أن يرفع زجاج النافذة من مخبئه فيستعصي عليه، أمكلف هو برعاية الفتحة التي ينصب منها العالم الشرس على سكان هذه العربة؟ من كلفه؟ ولماذا؟

ومن وراء الزجاج المسدود بدا له ظل القطار بعرباته القليلة، وقد

أضاءت مصابيحه الزرقاء، ينعكس غائراً، مهتز الأنوار، في عمق المياه التي لم يعد لها في العتمة غور مستبين، وقوارب الصيادين الرفيعة المستدقة الأطراف، مهجورة، بالية، خشبها مفكك عاري الألياف، مائلة وراقدة على الطين القريب بين رقرقة طبقة الماء النحيلة المتخثرة بالفساد. وفي آخر مجد نور المغيب أخذت تتوالى، تحت عينيه المجهدتين، نبتات ورد النيل الخضراء اليانعة، تحت القضبان الحديدية، وسط موجة واحدة رحراح من المياه الممتدة. والنبتات الكثة تلمع غضة، زيتية، ملفوفة، ساطعة بنور دسم مشع كثيف، وحشية بصمت، تستمد حياتها الضارية من العفن المتخثر. كانت العربة مغلقة على زرقة أنوارها المتهافتة، والمساء يزحف من الخارج، نمراً بلا صوت، في رائحته بقية عطن متراخ مستريح.

عيناها السوداوان بئر ماء حلوة بلا قرار، لا يعرف سرها. ترتفعان إليه من ضجيج دقات الآلات الكاتبة ورنين التليفونات وصخب المكاتب الملهوف السريع وحفيف الأقدام والأوراق في ممرات الشركة ومسالكها المفتوحة ومنصاتها الرخامية اللامعة وحواجزها الزجاجية، بينما هو في صحرائه الفسيحة المغلقة عليه، شعرها جدائل نخلة سامقة ناحلة الرشاقة ناعمة الجذع، وفي صدره الماسة الباردة تومض بنارها المحبوسة داخلها، أبداً، الحجر الرقيق يسطع باستمرار في نواة ليله. غداً لن تنطفىء شمس الماسة.

ومرة أخرى عاد إلى الجلوس في مقعده الذي زحمه الشيخ، وقد اتجهت عيناه بصمت جامد إلى المرأة أمامه، وصراخ ابنها يأتي، محرقاً ما يزال، يملأ ضجيج العربة، ولكن مكتوماً، صادراً من بين جدران جلدية مبطنة، يحس اهتزازها في داخله.

وتجمد في جلسته، لحظة ليست من الزمن، وثبتت عيناه إلى ساقي الولد الناحلتين في فم يمضغ رغيف ذرة مبلولاً، القدمان الصغيرتان بما عليهما من تراب الطريق، تغيبان، وتنطويان، ويدها تمتد إليه من جديد، والصرخة نفسها ما زالت محبوسة، والرأس الصغير ينطوي ويغيب في الظلام، لقمة وراء لقمة. للعيش المرحرح المبلول صوت تكسر عظام الجمجمة والضلوع، تنطبق عليها شفتان جافتان جائعتان، وقد انحسر ثوبها الأسود عن فخذ سمراء ممصوصة، فاجرة، تبدو للعينين كأنها سخنة الملمس، في رقة عظمها الحادة، لا ينطفىء جوعها، وما زالت تكرر في صوت آلي لا أمل فيه: طب بس يا واد، اسكت بقى، طب بس، والولد عيناه لا تفهمان، والوجبة البذيئة لا تفرغ، ما زال الولد على فخذها العريانة يصرخ صرخته المحرقة المتجددة، في طبقة واحدة لا تتغير، منهوشاً ممضوغاً بأسنان حانية، لا مبالية في حنانها، بينما البقال، أو لعله القومسيونجي، يحط حساباته المتصلة في النوتة الصغيرة، ويتمتم، بشفتين متحركتين لا تتوقفان، بأرقام لا آخر لها، والست المليئة أم طرحة مقموطة قد غاصت عيناها الصغيرتان في عجين وجهها الباهت المتخمر وانطبقت شفتاها في خط رفيع مصمم وإن كان لا أسنان وراءه.

مدَّ يده في حركة كأنما تندّ على الرغم منه، كأنما يهمّ بأن يوقف هذا الذي يدور أمامه أو أن يشارك في اقترافه، ولا يباليه أحد: طحن هذه الوجبة الداعرة الحنون، والمحرمة والمحتومة مع ذلك. ولم تمتد يده، ولم يتوقف شيء.

الناس يتململون في حركة الاستعداد للوصول، ويقف البعض ويشقون طريقهم بصعوبة في العربة التي تغمرها العتمة العكرة بنور

مزرق شاحب، وتثقلها رواسب الليل القادم. والجنود ينزلون من على أرفف العفش فتغوص الأحذية السوداء الضخمة وسط لحم القفف وعظام الشنط الهشة اليابسة، وترتفع قاماتهم الكاكي الطويلة الناحلة، في الزحمة المضطربة العتمة، حتى السقف. والعربة مندفعة إلى الأمام في دقاتها الحديدية التي أخذت ايقاعاً آخر، أبطأ، وهي ترتطم بمياه الليل الساجية الثابتة القوام.

ومن وراء الزجاج تعاقبت أحراش البوص الأخيرة، الداكنة الزرقة، ومرتفعات الرمل في وسط الماء عليها عربات نقل بعيدة مقلوبة، وبيوت صغيرة من حجر أبيض مظلم، ثم اختفت رقرقة الأمواج، وانفسحت الأرض، وارتفع جسر رملي عليه حرس الأشجار التي ترقب القطار يمر بينها بألف عين مهتزة الأهداب وألف ذراع متهاوية متأرجحة، وجاءت أعمدة السيمافور العالية المسحوبة المتتالية، تصطك ذراعها الواحدة الصلبة لتسمح للقطار بالمرور، وتبرق عينها الكهربائية الواحدة بلونها الأخضر، وتتشابك القضبان الحديدية وتتعرج، وتنشعب، وفي العربة جو فرح وقلق، بانفكاك الحصار وانقطاع علاقة اضطرارية، والأم ترفع ابنها إلى كتفها وترفع السبت بيدها الأخرى، والجد يقيم عظامه القوية العجوز وحفيده يلبس حذاءه من غير جراب ويتسلل في لدونة وراء جده، والبقال - أو القومسيونجي - يتشهد ويضع مذكرته في جيب سترته الداخلية، أما هو فقد أنزل حقيبة شركة الطيران القماشية الصغيرة وعليها الحروف اللاتينية البيضاء، ووقف في الزحمة ينتظر. وأنوار المحطة تتخايل لهم ثم تهجم عليهم، وإذا بهم في وسط الدقات المحتضرة العذبة الأخيرة، والقطار يصفر، مستنفداً، تحت السقف الزجاجي

العالي، وتتردد أصداء الوصول في المحطة الفسيحة الصدر.

الطريق غامض أمامه، ولكنه مفتوح.

عندما نزل من العربة كان سيل المسافرين قد انحسر وتشربته البلد، ووجد نفسه على الرصيف الخارجي، تحت سماء الليل. والقطار قد وقف، وغاضت منه حيويته وانطلاقته، انكمش وجف، قشرة مفرغة هناك، تحت السقف الزجاجي تهب عليه أنفاس الليل، والأرصفة المتوازية، في خلاء المحطة المبهم، متعاقبة واحداً بعد الآخر، تنتهي بانحدارات مائلة نحو الزلط والحصى والرمل وبرك السولار السوداء اللامعة الخبيثة، وعلى القضبان، بين الأرصفة، عربات نقل البضائع الحديدية الفارغة، مسطحة مكشوفة، ملقية بأذرعتها وأطرافها الناحلة الأسطوانية إلى الأرض، وتحت الأنوار الخافتة كشك بيع الصحف مسدود مغلق يغطيه نصف اعلان سينما قديم مقطوع، وبوفيه المحطة بعيداً جداً في أول الرصيف عند باب الخروج، معزول، يسقط فيه نور أصفر باهت على مقاعد وموائد مصفوفة بانتظام، خاوية تماماً، عقيمة. ومكاتب المعاون والناظر والبوليس والتليفون، بأبوابها المتجاورة المفتوحة، كلها عيون معتمة، على زجاجها قضبان معدنية متقاطعة قائمة من بعيد. وقد جلس أمامها في نصف العتمة، عسكري ضخم منتفخ في بدلته الصفراء وأشرطته العريضة الداكنة الحمرة على كمه، أسند بندقيته على الكرسي، وأدخل ذراعه تحت حمالتها، محنياً رأسه على صدره الذي يهبط ويرتفع بثقل.

الطريق مفتوح. ينزل من آخر الرصيف إلى أرض فناء المحطة،

ويعبر القضبان إلى اليسار، ويمر بين أحواض الزروع والأزهار والشجيرات المدورة تحت السور الحجري الأبيض، فإذا نفذ من كسر في السور خرج مباشرة إلى الشارع الطويل المهجور الهادىء، بجانب المحطة. دقيقتين ويكون في شارع الرصافة ومنه إلى البيت، بدلاً من اللفة الطويلة من باب الخروج. دقيقتين ويخلص.

وارتفعت يده إلى جيبه الداخلي إلى جانب صدره، ثم توقفت لحظة، وقد سطع الرعب في نفسه، وأنار العالم كله بنور وحشي خاطف، ثم انطفأ فجأة.

تجمد في وقفته على آخر الرصيف، ووضع الحقيبة على الأرض، وامتدّت يداه في حركة سريعة تبحثان في جيوبه جميعاً، بلهفة، وقد بدأ الجنون يزحف ويستأثر، لا يرد، بيقين خفي لا يريد أن يعترف به، بيأس كامل ومنكور. لن يجده. يعرف. ضاع. لا. لا.. في الحقيبة؟ كيف يمكن أن يكون فيها؟ لا.. وانحنى، مع ذلك، وقد غمر وجهه وصدره عرق بارد، عيناه نافذتان معتمتان من الصدمة، والخوف، ومضض القلق الذي لا شفاء منه، ويده تجوس في الحقيبة. لا شيء.. لا شيء. البيجاما، عدة الحلاقة، معجون الأسنان، الفوطة، الفرشة، الشبشب، غيار. الكتاب. هذا كل شيء. ولكن الخاتم. فقده. ضاع منه. فقد.

كانت قضبان السكة الحديد تمتد، بين الأرصفة، وتخرج إلى الفناء الخارجي، متشابكة، متجاورة، متقاطعة، لامعة في عتمة الليل بلمعة رصاصية فتية، غضة وقاسية، مدورة في صلابتها، اكتسبت قوة مصقولة مشحونة بطاقة كامنة من اقتران العجلات الضخمة معها، ودورانها عليها، وازدواجها بها، والخطوط الحديدية الملتصقة

بالأرض، الذاهبة على وجهها إلى أبعاد سحيقة تخرج بها من الزمن أيضاً، تشتبك بتراب الأرض وتدفن نفسها فيه، في عناق أخطبوطي محكم لا افلات من قبضة حبه.

لا، يجب أن يجده، لا بد أن يعثر عليه. بذرة حياته نفسها في قلب الحجر الشفاف المشع، من غيرها ثقب في قلبه لا يمتلىء أبداً، وفقد لا عوض له.

وانطلق يجري، مندفعاً في سورة من العمى الباهر، لعله ما زال هناك، وقع منه عندما قام يفتح الشباك، أو يغلقه، انحشر بين المقعد وحائط العربة، لعل العجوز وجده وأخفاه، أو المرأة سرقته، أو داس عليه الجنود وهشمته الأحذية السوداء الثقيلة، أحالته فتاتاً من تراب أبيض كالملح الخشن الجارح الزوايا، على أرض العربة، بين قشر اليوسفندي ومصاصة القصب. لا، لا، ما زال هناك، أخطأته العيون والأيدي والأحذية، ما زالت صخرته الدقيقة تشع في العتمة بوهجها البريء النقي، تنير الكون كله من مكمنها، غير مرئية، بين الحديد والخشب الأسود الكابي وعليه أن يجري، الآن، قبل أن يفوت الأوان، يلحق بالقطار قبل أن يرجع للمخزن أو يعود إلى محطة القيام. وهو ينهج، إذ يقطع المحطة الليلية الخالية، وقدماه تطيران به مع دقات قلبه الشرسة التي تمسك بكيانه، تعجنه وتهرسه بضربات مطارق حديدية متشابكة. واندفع يعبر القضبان، ويطير الحصى الدقيق والزلط الأبيض تحت قدميه، ويثب فوق البرك الصغيرة السوداء بها حلقات وموجات زيتية قاتمة الاخضرار، من الشحم والزفت المترسب بين القضبان وتحتها، وها هو ذا يجري إلى جوار قطار طويل، طويل لا ينتهي، عرباته فارغة، موحشة، متعاقبة، جدرانه

هـامدة، شـاحبة. بنـاء منيع يـوشك أن ينهـدم في أية لحـظة، ولكنـه متماسك لا ثغرة فيه، لا ينال، ولا ينتهي، ليس هذا قطاره، يريد أن يدور حوله، ولا يصل إلى نهايتـه، يريـد أن يبلغ قطاره الـذي غادره منذ لحظة واحدة، كأنها حدثت مع ذلـك في عالم آخـر انطوى تـاريخه منذ أمد سحيق، ولكن القطارات كلها قد اشتبهت عليه، بصمتهـا، وتماثلها، واتصالها الذي لا ينقطع، لا مبالية.

دار أخيـراً حول آخـر عربـة من قطار واحـد مشتبك العـربـات، ووثب يصعد الرصيف في اندفاعة لا جهد فيها، وخارقة، وقلبه يمـلأ المحـطة النائمـة كلها بضربـات عناد لا ينهـزم، وانحدر مـرة أخرى، كـأنما تحمله أيـد خفية، يعـبر آخـر القضبـان إلى قـطاره في الـرصيف التالي، هناك، أمـام عينيه، في متنـاول يديـه، وقد انشعبت في عينيـه بروق متلاحقة في لهفة حـارة. ما زال قـطاره واقفاً حيث كـان، لحظة واحدة الآن، لحظة واحدة ويندفع إلى عربته، ويجد حجـر خلاصـه، وصخرة نوره.

اصطدمت قدماه وساقاه، في شبه العتمة، تحت سماء الليل، بشيء طري طيِّع، على القضبان. وتعثر، ووقع إلى الأمام دفعة واحدة.

وجد نفسه راقداً على الأرض، على وجهه، منكفئـاً على القضبـان الحديدية الطويلة، ذراعاه ممدودتان أمامه على الـزلط والحصى وحبات الرمل الكبيرة، ينشق رائحتها الترابية الخشنة، ويحس لذع كشط حـاد في جانب وجهه الأيمن، وتحت ذقنه، أطراف أصابعه مكـدومة، وقـد أذهلتـه السقطة المفـاجئة وشلت وعيـه. لم يعد يحس إلا العـرق الملح يتقطر على عينيه وقد تضخمت أمامهما أحجـار الزلط الصلبـة الباهتـة

المعوجة القوام، كأنه لا يدري بعد ماذا حدث. وعندما عاد إليه الوعي، بعد خطفة زمن لا تكاد يحسب لها حساب، وجد نفسه في هذا العالم السفلي، بين حائطين شاهقين من أرصفة المحطة، على جانبيه، وهو في النفق المفتوح بينهما، كل شيء حاد، وقاطع وشديد الوضوح. ولكنه لم يعرفه من قبل قط. كانت القضبان تحت عينيه، قوية ويانعة الرسوخ في ضلعها الواحد المستدير الممتد إلى ما لا نهاية، والزلط محبب، مدور، مكسر الحواف، وحبات الرمل خشنة ناتئة كالحجر المصحون. لكن وجهه ـ مع ذلك ـ مدفون في طيات شيء كاللحم البارد الرخص، مألوف وحميم وبشع يهز قلبه بقشعريرة مثلوجة، لا يراه، وراحتا يديه تقعان على عضلات جسم مبتورة ومكتنزة كأنها تنبض، في برودة ممتصة، وتصد الحس تلصق به وتشله وتميته.

انبثقت في جسمه كله، من الرعب، شرارة كهربية واحدة خاطفة، ووجد نفسه واقفاً، ومس الصعقة الكهربية المتوتر ما زالت أصداؤه تتردد في أطرافه كلها. وقد وثب إلى الخلف، يحدق إلى فراغ الأرض، والقضبان الصامتة المصقولة النظيفة، والأرصفة، تبدو له كلها متينة، عملية، راسية.

لم يصدق. كان وحده في المحطة الفارغة، تحت خواء سماء صدئة، وأعمدة السيمافور منطفئة لا تشير إلى شيء، والسقف الزجاجي الدافىء بعيد.

حس الأشلاء المبتورة المرمية على القضبان ما زال في وجهه ويديه، حس اللحم الانساني المحظور والمحبوب معاً، البارد، عضلات بطون وأطراف سيقان مدورة وأذرع بضة متشابكة، باردة، باردة، هامدة،

لكن فيها مع ذلك ورعاً لا يخطئه القلب أبداً، روع التلاصق بأجساد ميتة، بأجساد المحارم الميتة.

لم يحدث. لم يحدث شيء من هذا كله. غير معقول. ماذا أصابه؟ لا يعقل أن الصدمة قد أصابته بهذا. الانكار مع ذلك سطحي لا جدوى فيه.

في عمق يقينه، في غور بعيد مثقوب في دخيلته صوت صغير لا اسكات له: نعم نعم. حدث.

القطار ما زال واقفاً، باهتاً، نوافذه، وأبوابه فاغرة سوداء، على الرصيف التالي، قريباً جداً، ولا سبيل إليه.

نفض عن نفسه هذا الكابوس غير المعقول، كما ينفض حيوان بري عن جلده قطرات ماء غريب. وأوشك أن يسخر من نفسه.

نعم، سقطت، هذا كل شيء. ما خيّل إليّ أنه حدث في لحظة السقوط الخاطفة، محض وهم من القلق واللهفة والفقدان.

قدماه تصطدمان باللحم الطيع الممدد على القضبان، والرعشة تثلجه مرّة أخرى. وهو يخطو إلى الخلف، ويتقدّم، ويقع، ويقوم، مرة بعد مرة بلا انتهاء، في عناد لا عقل فيه، في تصميم لم يعد يملك فيه من أمره شيئاً، يطيع، في عمى، حافزاً لا يرد ولا جهد ولا ارادة في طاعته. يرتطم وجهه ويداه وصدره، مرة بعد مرة، بلا انتهاء، بسور لا عبور منه، من الاشلاء النظيفة النقية الشاحبة، كأنه يراها في العتمة. لم تعد هناك إلا هذه الدورة المتكررة أبداً من الاتصال بهذه الجثث والانفصال عنها، جثث أخواته، جثته، تتخايل له تحت السماء الفسيحة، مقطعة ولكنها بريئة، انثالت عنها الدماء وانحسرت تماماً،

وتركتها صافية بيضاء، هرستهـا عجلات القـطارات الذاهبـة الآيبة، شقتها طولاً وعرضاً عـلى الرمـل والحصى، ومضت عنها، نضت عنهـا كل أدران الحياة وأخلاطها، مكومة، في نسق غـريب، ونظام سيقـان مبتـورة. حـادة البـتر. رؤوس مجـزوزة كـأنها سقـطت من كـلابـات الخـطاطيف، عيونها مـا زالت تـترقـرق فيهـا الميـاه، يقـظة، أوصـال متراكمة بعضها فوق البعض مرتاحـة في نوم الـزمالـة الأخيرة، محـددة الجوانب والأضلاع، انصبت منها، منذ زمن بعيد، كل لزوجة الدماء ولوثاتها، وبقيت طاهرة مصفاة، ناعمة ولينة ولكن متوفزة ومتماسكـة، تكاد ترتجف بالنبض، بقايا أجسام غضة من غير سوء، كأن فيهـا، ما زالت، روحاً محبوسة لا تريم، لا تنهزم، أنفاساً تتردد في عمق خفـي لا ينـال، تنتظر. فيهـا، ما زالت، حيـاة قـاسيـة بـاردة، لا تـطالب بشيء، لا تريد شيئاً، لا تقول شيئاً، لكنها صـارمة عبـوس. لا تبرح مقامها المثلوج. ستظل تعمره أبد الدهر، تحت العجلات، وفي خـواء الليل على السواء، متجهمة في أسارها الذي لا ينفك، بـإدانة لا بـرء منها، ولا تقويم لها.

(٣)

أرصفة السكة الحديد تمتـد، متينة ومـظلمة، متجـاورة بلا نهايـة. عريضة وخالية.

والسماء المعتمـة فـوقي شـاسعـة ومنفصلة. الليـل الـذي فيهـا لا ينجاب. والنجوم ثابتة، صغيرة، لن تذوب في أي فجر.

أسأل نفسي لماذا هذا الخواء في هـذا العالم الـذي ليس لي غيره ولا أعرف كيف أخرج منـه. لا أعرفُ أين البـاب. أعرف أنـه لا بد أن يكون هناك، ولكني لا أعرف طريقاً إليه، أي طريق.

كأنني خرجت من تحت سقف المحطة الزجاجي العالي، وكأن أمي وأخواتي البنات الأصغر مني قد خلت منهن المحطة، وتركنني وحدي. أتلفت حـوالي، تحت ضغط اللهفة المحكـوم الهادىء، ولا أرى سـور المحـطة من وراء الأرصفة المتكـررة، رصيفاً بعـد رصيف، عـلى يميني وعلى شمالي، بلا آخر. القضبان الحديدية بينهـا ساقـطة على الأرض، مدورة، ملتوية ومستقيمة، متشابكة ومتـوازية، عينـاي تعرفـان مدى صلابتها التي لا يمكن أن تنكسر، شديـدة اللمعان من فـرط احتكاك العجـلات الدوارة بهـا ليل نهار، الأقـراص الحديـدية الهـائلة التي لا

تقضم منها جذاذة ولا تصنع شرخاً، بل تزيدها عناداً. والقطارات الضخمة سوداء، مربوطة بلا جدوى بقاطراتها الهامدة، لا أعرف من فيها.

يجب علي أن أجد الشباك الذي أقطع منه تذكرتي. شبابيك التذاكر حوالي من وراء قضبانها الوثيقة المتقاربة، منيرة ولكن مغلقة، ليس فيها وجه، ليس فيها أمل. والوقت يفوت، والساعات الكبيرة المدورة الوجوه ممسوحة ليس فيها عقارب، ولا أجد من أسأله.

كنت أعرف أن الباب هناك تحت ممر واسع ومرتفع ودائري العقد والهواء فيه نظيف، في وسط جدار المحطة الداخلي السامق العريض الأحجار، وأنه مغلق الضلفتين، ومصنوع من الحديد الرقيق المشغول أطرافه المدببة على شكل السهام المرشوقة في أعلاه، مطلية بالذهب، ولا يفتح إلا عندما يأتي الملك في قطاره الأبيض ذي الشرفات المزركشة. ويفرش البساط الأحمر ويمتد تحت قدميه من عتبة القطار على طول الرصيف وعبر الباب والممر العريض المنير حتى الساحة الخارجية، وتمتلىء المحطة بالجنود والزهور في صفوف وثيقة ومتلاصقة لا ينفذ منها شيء. ولا يقف عمال الأبواب على رؤوس الأرصفة عند الحاجز الحديدي المنخفض، لا يثقبون التذاكر بمقراضهم الحديدي الشرير الشكل ولا يقتضونها منك عند الخروج، فلا يمكن أن تدخل أو تخرج الآن. مرة واحدة لمحته من بعيد، الملك، من بين ظهور الجنود والناس الواقفين بجلابيبهم وطرابيشهم وعمائمهم وشيلانهم وربطات العنق الرفيعة الضيقة الخناق، ورأيت اهتزاز ذيل «السموكنج» الطويل الذي يلبسه على جسمه الثقيل، غريباً على ساقيه الممتلئتين، وجانباً من وجهه المحتقن المزدحم بالدم، وشاربه

القائم بذؤابتين رفيعتين مشدودتين «بالكوزماتيك» المشمع. كان أبي يقبض على يدي بقوة، ونحن نخرج في الزحام، وأشم الرائحة الحريفة من معطفه وسجائره ورجولته، وهو يمسك بعصاه الرفيعة السوداء الحديدية الكعب ذات المقبض الأبيض المحفور بزخرفة عرفت عندما كبرت أن اسمها «قلته فلتس» من العاج المخروم. كان في ميدان المحطة قره قول من تلاميذ المدرسة الحربية بالشريط الأحمر الذي يشق البنطلون الداكن الضيق المستقيم حتى تحت الحذاء الاستيك اللميع، وبلوك من الجيش البريطاني، وموسيقى القرب الاسكتلندية بأصواتها الثاقبة المملة، والجونلات ذات الطيات المتعددة، وقطرات العرق تتفصد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسحونها والموسيقى النحاسية تضرب بقرقعات بهيجة وايقاع واحد لا يتغير. وجندي قصير يحمل طبلاً ضخماً على بطنه الكبير يدق عليه بانتظام دون توقف، كأنه وحده في العالم.

جنود بلوك النظام ينزلون جرياً من عربات الجيش المربعة العمودية الجوانب، على سلالم قصيرة مثبتة في مؤخرة السيارات، ويطاردوننا، بقمصانهم الطويلة المهدلة وسراويلهم التي تنزل تحت الركبة بقليل، وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف «الألشين» الكاكي الرمادية التي ترتفع إلى ما تحت الركبة بقليل. ونحن نجري في ميدان المحطة الفسيح بين عربات الترام الصفراء اللون التي توقفت، واحدة بعد الأخرى، على خطوطها، والناس ينظرون منها بفضول. وكان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد انضموا إلينا. وكنت أهتف، ولا أسمع صوتي: تحيا فلسطين. يسقط وعد بلفور. الاستقلال التام.. حملت العلم يا عبد الحكم.. الشمس حارة في دمائنا ونحن نجري.

والشتائم البذيئة من العساكر تلاحقنا، والعصي القصيرة في أيديهم. وكانت الشتائم موجعة جداً. والغضب يلف العالم، ولا ينجاب أبداً.

كان الجدار الخارجي الجانبي للمحطة، أمام باب الدرجة الأولى، يرتفع حتى الشارع العلوي تتخطر عليه عربات الحنطور التي تبدو صغيرة، وأجراسها دقيقة مصلصلة الصوت، فوانيسها النحاسية الأمامية بزجاجها المصقول المكعب السطوح، كأنه معمول من ماس كثيف ونقي، تحبس شعلات صغيرة صفراء محمرة تتقد في النهار. وقع حوافر الحصان على بازلت الطريق له موسيقى رشيقة. وكنت أنظر إلى اعلانات «شركة الادرياتيك وتريستا للسفريات والملاحة»، والباخرة تمخر مياه الحلم المتموج بزرقة فاتحة الصبغة، دون أن تتحرك، مستقيمة الخطوط وهفهافة الريح في وقت معاً، ثابتة في سرعتها الساكنة التي لا زمن فيها، ونوافذها، في البطن المسطح، بصفحته المستوية، فتحات كاملة الاستدارة ومسدودة بلون الزجاج المعتم الشفافية.

كنت أرقب «الدبور» الذي صنعته من ورق كراسات المدرسة، مدبباً أبيض حاد المقدمة، أشد طيرانه بالخيط الطائر في السماء، بحزم ورفق، فوق رؤوس النخل، وأنا على سطح بيتنا في غيط العنب. وقلت لنفسي بفرح إنني عندما أكبر جداً، وأصبح في العشرين، سوف أسافر في بعثة، كما سافر رفاعة رافع الطهطاوي، إلى مارسيليا، وأركب البحر على باخرة شركة الادرياتيك وتريستا، وأعرف فنون الحرية في باريس كما لم يعرفها أحد في عصر قط. وكنت أعرف أنني لم أركب هذا البحر، ولم أمخر عباب هذه الحرية، وأن

القلب الطفلي ما زال يطفو فوق أحلامه القديمة وإن كان الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة.

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة، كسلالم الحريق لأقدامي عليها رنين معدني. سياجه الدائري يهبط معي إلى دور سفلي في المحطة المعقدة المسالك، خاوياً أيضاً بلا نهاية، والسماء نفسها فوقي، وفوق الأرصفة العلوية الأخرى، منفصلة لا تزال، لا يهب فيها النسيم.

وأجد أمامي المصعد الكبير الذي ينزلق على بابه الحديدي المصمت، بهدوء وثقة في مجراه المحفور، ويصطك بالجدار المعدني بصوت ثقيل نهائي. وفي الهبوط البطيء أحبس في قلبي الروع الذي يريد أن ينفجر. هذا الباب لن ينفتح عليّ قط. لن يسمع أحد صوتي عندما أنادي النجدة. لن ينجدني العالم.

وتسكت حركة المصعد الفسيح، وتمر ثانية واحدة، كأنها لن تمر، من الصمت التام. الباب مغلق، لا ينبض.

ثم يرتعش الباب ببطء، على الرغم منه، وينزلق مفتوحاً.

وأفلت منه كأنما خرجت من قبر ذي أصداء، مضيء بمصباح كهربي مدور تتحلق به شبكة أسطوانية من الأسلاك الحديدية عليها سحابة ضعيفة الحركة من الهاموش.

وتمتد أمامي الأرصفة المتكررة المفتوحة مرة أخرى. وتزداد السماء وليلها الملتبس ابتعاداً. الأدوار العلوية، دوراً فوق دور، مدكات شاهقة من الأسمنت مغلفة بأحجار البازلت اللامعة.

لا أريد الاستسلام للفزع الذي في ساقي، ولا أريد أن أجري في

شوط لا أعرف لـه وجهة ولا نهايـة. أرفض اليقين الـذي في جسمي بـأنني ضللت إلى الأبد بـين هذه الامتـدادات الشاسعـة من الأرصفة المتعاقبة والمتقاطعة والمتراكبة، بـين أسوار البـازلت الشاهقـة، ترتفـع عليها مصاعد البضاعة الهائلة وتسقط مغلقة الأبواب.

العناد، كاليأس، لا ينكسر.

صفارة القطار تنطلق فجأة في الصمت المعتم الـرحيب الذي تقـطعه مصابيح عـالية صغـيرة. ويتردد لهـذا الصوت الـوحيد صـدى أجوف الصدر، يصطدم بالسقف الزجاجي المحدب البعيد، قضبانـه العلوية المتشـابكة في نسق هنـدسي رقيق التصميم، تبدو مفصـلاتهـا القـويـة العضل هشة وحساسة أمام عيني المرفوعتين.

والقطار يتخم نفسي، أخيراً، بدقاتـه الرتيبـة، مرة أخـرى، كأنها دائـماً هي المرة الأولى. وهـو ينطلق في نـور الظهـر القاسي، بـايقاعـه المتراوح الذي يتضخم وينفجر في خبطة مكتـومة ثم يهبط. يتضخم، ويمتلىء ويقرقع في هدة مكبـوحة، ثم يخفت. هـزيمه المتصـل المتناوب الصدمات يصطفق في داخلي، دون هوادة، في عزم ليس له انقطاع.

أسأل نفسي السؤال الممزق، وأنـا صامت، جـامد الجـوارح: أين يقف هذا القطار؟ وإذا وقف، فكيف أعرف أنها محطتي؟

إيقـاع دقات العجـلات على القـطار، منتـظماً، لا يفـرغ، وطنـين المحرك المليء بالقوة لا يبالي شيئاً، هو صمت خاص.

الزجاج المحكم على السخونة الهفهافة في العربة المكيفة الهواء يبدو منيعاً، لا يخترق.

وكـأنما عـلى الـرغم مني ارتفعت يـدي، لا أملك لهـا رداً، تبحث

وتتلمس بلهفة مضغوطة متطلبة. يدي تريد أن تجد مقبضاً أمسك به، مفتاحاً أديره، زراً كهربياً أضغط عليه، حلقة معدنية أجذبها، أريد أن أفتح الزجاج، أنشق الهواء البارد الذي أراه يهز أشجار الغيطان وعيدان الذرة، أعرف نسمته المتربة المحيية. لا ينال.

جدار القطار المعدني، منبسطاً وناعماً، ليس فيه أدنى خدش ولا نتوء، لا يقطع سطحه المصمت شيء. والستائر الكريتون الصفراء بلون الخردل الغامض تنسدل على جانبي الزجاج بريئة، بيتية، أحس فيها مع ذلك قصداً خبيئاً، وهي مصنوعة بمكر وأناقة متكررة، كلها متطابقة.

ترتفع يدي مرة بعد مرة، بارادة خاصة، أكابد الحيرة التي لا تنقضي. وأجاهد حتى لا تبدو على هذه المكابدة الوحيدة، فأسترق النظر إلى الركاب الصامتين، كل منهم وحده أيضاً. حتى الأزواج والرفقاء، متفارقين. وأعرف أنهم يسترقون النظر، في أعينهم اتهام غير معلن، مترصد، هل ينتظرون اللحظة التي يفصحون فيها عن شيء كالإثم قد اقترفته، لا أعرف ما كنهه، لكني أعرف أنه هناك؟ وأفاجيء نفسي بالسخرية من نفسي: تظن نفسك من أصحاب الآثام، وتظن ذلك بطولة مقلوبة على وجهها، من غير شريك؟ والشركة في الإثم لا هي تبرئك ولا هي تمجدك.

وقلت لنفسي ليس بين هؤلاء الذين يركبون معي من يثير الاهتمام.

هذه المجموعة المعتادة من ركاب «الديزل» الدرجة الثانية المكيف: أواسط كبار الموظفين بعيونهم المتورمة وذقونهم المتهدلة اللحم

وحقائبهم «السمسونايت» الأصلي والمقلدة التي تحمل أوراق الإدارة أو الشركة أو تصميمات المشروعات المربحة للجميع، وضباط الجيش الشبان، والذين ليسوا شباناً جداً، بملابسهم الكاكي المكوية وقد خلعوا الكاب ووضعوه على الرف العلوي المزدحم بحقائب جديدة صغيرة ومتوسطة وبأكياس النايلون المنبعجة بما فيها، والزوجات ـ أو غير الزوجات ـ المنهكات جفت النيران الوجيزة التي عرفنها بسرعة، مكحولات ومصقولات الخدود وشفاههن داكنة الاحمرار بالماكياج المستورد، صدورهن المشدودة لم تعد لها جدوى، والمقاولون، والسماسرة والتجار ورجال الوكالات وشركات التصدير وخصوصاً الاستيراد، لا تخطئهم العين، ملابسهم غالية ولكنها ما زالت توحي بالجلباب الحرير والقفطان الشاهي والمعطف البلدي، عيونهم صلبة ومعدنية. وقلت لنفسي لا، لا يهمونني، لست منهم. وأعرف أنني لا أختلف عنهم في شيء. ولعلهم يعرفون أنني معهم. وقلت لنفسي لا، لست منهم، لست أنا. ثم قلت لنفسي ومع ذلك فأنت هنا، معهم، في قطار واحد، وعربة مكيفة الهواء واحدة، وسوف ينتهي القطار بنا جميعاً إلى محطة واحدة. ويداي تحترقان فجأة برغبة لا جدوى منها في أن أجد مفتاحاً يشق انسداد هذا الزجاج المغلق عليّ وعليهم. ورأيت فأس الحريق الحمراء الصغيرة، في صندوق زجاجي مغلق بإطار معدني من الألومنيوم الثقيل ومعها تعليمات مطبوعة عن كيفية استخدامها عند اندلاع النار. أين رأيت هذه الفأس؟

هل يمنعونني من النزول عندما تأتي محطتي؟ وما محطتي؟ هل يعرفون أنني ليس معي تذكرة، يعني أنه لا مكان لي هنا، في حقيقة الأمر؟ وهل هذا صحيح؟ لا أذكر هل اشتريت تذكرة، ولا أريد أن أبحث

عنها الآن في جيوبي، في المحفظة، بين صفحات مذكرة الجيب، لا أريد أن أثير شبهاتهم، لا أريد أن أستعدي اتهامهم، لا أريد أن أستفز هجومهم، لست أخافهم، صحيح، لكن ما الداعي لأنواع من سوء الفهم وتخبط المقاصد؟ سأنتظر حتى يأتي المفتش وتنتهي المسألة، أما أن أجد التذكرة أو أدفع الثمن مضاعفاً، والغرامة، وبدل التكييف والدمغة والرسوم. أم أن المفتشين يرفضون قبول الثمن، ينتظرون حتى الوصول إلى أول محطة، ويأخذون المسافر الذي اقتحم القطار إلى مكتب الناظر.. لكي.. ما هي الكلمة؟ لكي.. لكي.. يطوق.. نعم هذه الكلمة. يطوق، أو يحبس.. لا.. لا.. كان هذا من زمان. في طفولتي. أليس كذلك؟ لم يعد الأمر الآن على هذا النحو. لم هذا الفزع المستكن لا يريم، بذرة أثرية قابلة للانفجار، لا تريد أن تنفجر عن شجرتها السامة، ولا تريد أن تموت. غريب أن المفتش لم يجيء حتى الآن. لا بد أننا سافرنا ساعات وساعات. هذا القطار مباشر صحيح، لا يعرج على المحطات الوسطى. إلامَ يذهب؟ ما المحطة التي يجب عليّ أن أنزل فيها؟ عندما تأتي سوف أتعرف عليها. سوف أعرفها سوف أعرف اسمها. من شكل الأرصفة، وشبابيك التذاكر، والأبواب الجانبية، والسقف، سوف أعرفها، من نداءات الحمالين، ممن ينتظرون. يجب أن أعرفها.

كان القطار قد ارتفع فجأة فوق جسره، يتسنم طريقاً له وحده. وهبطت الأشجار تحتي، ورأيت ذؤاباتها الكثيفة تنوس برشاقة غير انسانية موسيقية، خبطات القطار قد ازدادت عمقاً، ولها صدى، وهو يشق السماء المحايدة المحجوزة وراء الزجاج المسدود. حدائق البرتقال

تمتد تحت الجسر، تبدو نائمة، شجرها قصير ومدور وخضرتها داكنة والحبات الصفراء المخضرة مرشوقة في الكثافة التي تنضم عليها، بنهم، كأنها ملصقة هناك، غير حقيقية، فواكه الشمع التي كنا نضعها في فسحة بيتنا وأنا صغير، خداعة لا تؤكل ولا رائحة لها. وعلى حواف الجناين أشجار الموز القميئة، مفلطحة الأجنحة، عقيمة، تأكلت أطراف ورقها العريض الذي يتهدل هش النسيج. والطرق تتشعب، تحت جسر السكة الحديد، إلى مفترقات وممرات ضيقة بين الغيطان الصفراء المحشوشة الزرع، والبرك الصغيرة بمائها الأسود الراكد عليها أوزّ قليل يجري فجأة مفزعاً لا أسمع صوته، تحت أسوار حجرية تعلوها أسلاك حديدية مدببة، تحيط بخرابات مهجورة فيها طوب وكتل من الإسمنت ولافتات زرقاء واسعة تحمل بالحروف الإنجليزية والعربية أسماء شركات وبنوك ايرانية وسعودية مصرية مشتركة ونوايا مصانع لإجهزة التكييف وثلاجات للخضر والدواجن ومناطق حرة للتصدير والتوريد، وربوة مضطربة الارتفاع تأتي فجأة، وعليها الشواهد ومكعبات القبور المحدبة الجديدة التلوين، تحت شجرة الجميز العتيق.

خطفت تحت بصرى فجأة، على حافة الترعة البطيئة الجريان، سيارة مرسيدس واقفة متنمرة، فاجرة اللمعان تحت ورق الموز المسطح الجاف، وبالقرب منها نساء سمينات وجوههن كالخزف الأملس، مشقوقة الأفواه والعيون، يأكلن بتصميم وصمت من طواجن متعددة، يجلسن على ملاءة سرير وردية اللون مفروشة على تراب الغيط، وأيديهن لا تتوقف، تحمل قطعاً كبيرة من اللحم والخبز المليء بالطبيخ إلى الأفواه المصبوغة. وكانت أفخاذهن عارية وسمراء وكثيفة

في جلستهن على الأرض، وأولادهن يتحلقون حول الطواجن وترامس الماء الكبيرة البطون. وبينهن فلاحات عجائز، كأن أجسامهن خشبية، بالطرح السوداء الجديدة، يقفن غير بعيد، بلا حركة. اندفع القطار، وارتفعت وجوه النساء إليّ، الأفواه تتحرك، والعيون جامدة من اللذة المكررة المعتادة، واختفين وراء القطار.

نافذة القطار المزدحم مفتوحة، وأنا أقف بين الناس والقفف واللفف والربط والسلال الشائكة الخوص والحقائب الكرتون المقوى المصبوغ بلون الجلد، أضع قدماً واحدة على أرض القطار المهتز، وأستند بذراع أثقلها التعب والتوتر على مسند المقعدَ الخشبي وراء رؤوس الفلاحين وأولاد البلد المتلاصقين باللبد والطواقي والطرابيش، وقدمي الأخرى مرفوعة محشورة بين السيقان والشنط والكراكيب التي يكتظ بها ممر العربة. الريّاح يجري تحت القطار بمياهه الحمراء العفية العضلات، أمواجها الصغيرة تسابق القطار وتتقلب عليها كتل صغيرة من الطين والقش والأعواد الخضراء. هواء العصر في هذا اليوم من أواخر سبتمبر يهب على وجهي، بارداً وقوياً، من النافذة الخشبية المفتوحة، ويدخل بنفث الدخان الدقيق الذي أحسّ ذراته السوداء على يدي وأعلى صدري تحت القميص غير المكوي المفتوح من غير كرافته، والجاكتة الصوف الجاهزة. الأشرعة البيضاء شامخة فوق أجسام المراكب المدببة الصدر ثابتة الجريان على مياه الترعة التي تبدو فجأة ضيقة ومزدحمة.

قرقعة القطار لا تتوقف، والأفندي، بجانبي، يتحدث بثقة من تحت شاربه الكث ومن كرشه الكبير، ويقول لفتى اسكندراني أمامه، ملوح الوجه وأزرق العينين، باللاسة اللامعة واللباس الأسود الواسع

المتهـدل الطيـات، إن الحكومـة عملت وزارة جـديـدة اسمهـا وزارة التموين، وسوف تعطي الناس كـوبونـات للجاز، وبـطاقات، دفـاتر صغيرة مخصوصة يعني، فيها أسماء العائلة وتصرف لهم السكر والزيت بها. وامرأة ممتلئة القوام في ملاءتها التي تراخت على كتفهـا، وكشفت عن صـدرها النـازل من فتحـة فستـانها الـواسعـة، مصمصت بفمها الشهـواني ورفعت حاجبيهـا المحفوفـين، قوسـين رفيعين عـلى عينيهـا اللامعتـين من الالتصـاق بـأجسـام الـرجـال، تحت قمـطة شعـرهـا المحبـوكة عـلى جبهتها المـدورة وسألت: كيف تـترك الـواحـدة أسـماء ضناها، اسم الله عليهم، عند الحكومة والبقالـين ومن يسوى ومن لا يسـوى؟ هذا لا يـرضي ربنا، حتى. ونـظرت إلى الولـد الاسكندراني العـترة إلى جانبهـا، بطمـع صريح. وتـذكرت أمي. وكـانت صحوة رجـولتي الجـديـدة مـذنبـة. وكـان جسمي كله مشـدوداً من الـوقفـة المتزعزعة والزحمة واليقظة في الفجر وركوب الحمار مع أختيّ الصغيرتين وانتـظار القطار الفـرعي في محطة كفـر داود الـذي يتـوقف كـل خمس دقائق، ثم الانتظار في محطة ايتاي البارود للحاق بقطار الإسكندرية. ولم نكن قد أكلنا إلا القـراقيش التي عملتها لنـا جدتي بـاللبن الرايب والزبدة، وأوصتني على اخواتي ودعت لي بـأن يكتب لي في كل خـطوة سلامة وأن يحوطني، بحق ابنه يسوع، ببركـة الصليب في كل مـطرح أحط فيه رجلي، وقبلتني على خدي بشفتيها الجافتين. وشممت رائحة الحـطب والخبيـز من طـرحتهـا السـوداء وهي تضـع حـولي ذراعيهـا الصغيرتين.

أستنـد بجزء من ظهـري إلى القفة الكبـيرة التي وضعنا فيهـا الوزة المذبوحـة المتوفـة الريش، والقـراقيش، وصفيحة الـزبدة التي سـوف

تسيحها أمي لتعمل منها السمنة والمورتة، وأستند بجزء من جنبي إلى حقيبتنا الكبيرة التي ربطنا فوقها، بخيط غليظ، لحافنا القديم. ولم يكن اللحاف نظيفاً جداً، كنا قد تغطّينا به منذ كنا صغاراً جداً، أنا وأخواتي، عاماً بعد عام. والهواء يندفع من نافذة القطار فيفضح رائحة اللحاف. والفتاة التي تجلس أمامي، ملتصقة جداً بأختي من ناحية، وبالست العجوز المهدمة التي لا بد أنها أمها، أو خالتها، من ناحية أخرى، تحول وجهها عن الحقيبة كلما انحرف القطار في طريقه فاشتد تيار الهواء. وأحس العرق الخفيف يخز وجهي بفتات دخان القطار الدقيق. وكان وجهها جميلاً وسمرتها صافية وحيّة، وعيناها حادتان متقلبتان بموج صغير فاتح الخضرة. وجسمها المزحوم يبدو لعيني قوياً ومتوفزاً، مدور البطن، وكان صدرها كبيراً ومحبوكاً ومثيراً. وتنظر إليّ، ولا أجرؤ على فهم ما تقول عيناها. وقلت لنفسي: هل هي تلميذة بالثانوي تعود للمدرسة، مثلنا؟ أو بائعة في صيدناوي، مثلاً، أو هانو؟ وسرحت في قصة عن أنها تحب ولداً مثلها وأنه يحبها ويشتاق إليها. وقالت لي فجأة بصوت غاضب ألا أستطيع أن أزحزح هذا من أمامها؟ ألم يكن هناك مكان آخر أضعه فيه؟ وأصابعها المكتنزة الدقيقة الأطراف بعيدة كأنها تخترق، جارحة، ربطة اللحاف التي يضطرها الزحام أن تضغط بساقها عليه. فرددت عليها بصوت هادىء ومؤدب ومثقف أنني متأسف ولكن الأمر لم يكن بيدي فقالت بصوت حار وثاقب إن هذا غير ممكن بل غير لائق. ووجدت نفسي أجيب بصوت مستثار ومستفز أنها ترى بعينها هذه الزحمة وأنها لو تستطيع أن تجد طريقة فلتتفضل بأن تقولها، وقالت هذه الربطة هل يعني من نصيبها أن توضع أمامها، وما هذه الربطة؟ أهذا يصح

يعني؟ ولم أتنبـه إلى أن سؤالها كـان سؤالاً حمياً، وكـانت عيناهـا الآن مشتعلتين وكان صـوتي الآن عدوانيـاً ومهاجمـاً وأنا أقـول إنه يجب أن نتحمل بعضنا ساعة زمن على أقل تقـدير وأنني لست السبب في قيـام الحـرب وزحمة القـطارات وأن المسألـة ليست ما يليق ومـا لا يليق بل مسـألة ظـروف لا نتحكم فيهـا، وضبـطت نفسي أوشـك أن أفلسف أخـلاقيـات زمن الحـرب فسكت مـرة واحــدة وسكتت هي بعـد أن تنبهت إلى الناس حوالينا وكانوا ينظرون إلينا، وكانت السيدة الملفوفـة التي تبدو في عنفوان نضوجها المتأخر قد مالت على الولد الاسكندراني جارها، تتـابع الخنـاقة، ورفعت يـدها تسـوي مدورتهـا بسرعة عـلى شعرها، وانحدرت الملاءة السوداء على ذراعها العارية البيضاء المتموجة المياه، وكان جانب ثديها الآن ملتصقاً بكتف الفتى وبـدا كأنـه محبوس وممتلىء. وعادت فرقعـة القطار تتتـابع وتـدق، مرتفعـة مرة أخـرى، وتغـرق همهمة الكـلام ونداءات البيـاعين الـذين يقفزون وينحشرون بـين الـركـاب والقفف والحقـائب، يحملون عــلى رؤوسهم مقـاطف اليـوسفندي الـطازة العشرة بقـرش. واكتشفت فجـأة وهي تنـظر إليّ بعينها الخضراوين، فيهما غضب وفهم، أنني متوتر وصلب جداً، وإن بطنها دمث وراسخ، وصدرها يهتز، بثقة، مع هزات القطار الرتيبة.

عندما ماتت أختى بالتيفـويد في آخـر ذلك العـام تذكـرت نظرتهـا الوديعة إليّ وهي بجانب هذه الفتاة، كأنها تغفر لي، وتذكـرت أننا لن نجد عربة حنطور تقبل أن تحملنا إلى البيت من المحطة بثلاثـة قروش وهي كل ما كان معي، وأنني حملت الحقيبة وتـركت لها القفـة الكبيرة وكـانت ثقيلة عليها، فـرفعتها وحملتهـا فـوق رأسهـا، وهي مـا تـزال طفلة، بـالكـاد في الـرابعـة عشرة، وكـانت نحيلة وشـديـدة السمـرة

وشعرها مجعد وعيناها فيهما شجن لا أفهمه وهادئتان، ومسحوبتان كحبات اللوز، وصعيدية جداً، وكانت أقربنا شبهاً بأبي. وبكيت عندما تذكرت كيف كانت تسير إلى البيت بصبر وصعوبة، أمام المقاهي والدكاكين المنيرة المزدحمة في أول الليل، وتقول إنها ثقيلة فأقول هانت وسنصل بعد دقائق، وكانت دموعي صافية لأول مرة وعرفت أن البكاء لا معنى له وأن الألم الذي يمزق القلب شيء لا وزن له ولا يجد شيئاً عند أعز الناس إلى القلب. وتعلمت شيئاً آخر عن الوحدة، وأنا أبكي الآن، بعد السنوات الطويلة، بلا ضرورة أيضاً. وكنت حزيناً وأنا أفكر أنني سأجد أختي تنتظرني على الشباك وسوف أرى وجهها الصعيدي الناعم السمرة وعينيها العميقتين الخجولتين بسوادهما الذي تخفيه عني، وأنها ستقدم لي فنجان القهوة المضبوط الذي تعرف كيف تصنعه لي، لكي أسهر طول الليل أنهي كتاب تاريخ الحضارة وأرده غداً للمكتبة البلدية. وقلت لنفسي إنني لن أضربها على وجهها بعد الآن لأنها تقرأ رواية غرامية من روايات الجيب وسأقول لها ألا تسهر تنتظرني حتى أعود بعد منتصف الليل وبعد أن ينام كل من في البيت وتعد لي عشائي وتسألني إذا كنت أريد فنجان القهوة المضبوط، لا داعي أن تسهري، نامي أنت، سأعد لنفسي العشاء. وكنت أفكر أن الحزن ورقة القلب غريبة وقد فات أوانها من زمن بعيد، وليس لها الآن أدنى أهمية.

كان زجاج النوافذ مصمتاً والستائر الثابتة الكريتون الداكنة الصفرة تبدو كأنها ورق ديكور قديم وكركرة تكييف الهواء الجافة قد سكتت والناس صامتين يتحركون كأنهم مرغمون على النزول. ضباط الجيش من غير حماسة الآن، والنساء اللاتي بهت الماكياج على عيونهن المرهقة

الظالمة، والمقاولين بعد غلظة الأكل والبيرة وحسابات المكاسب العقلية وغير العقلية راضين جداً ومثقلين بأجسامهم التي كأنها ماتت عنهم.

والقطارات المنطفئة قد توقفت أخيراً في ساحة المحطة الداخلية التي تتوقد فيها مصابيح متناثرة على أعمدة عالية، بقعاً باهتة تسقط ضوءاً قليلاً على القضبان الحديدية. وتعريشة نباتات طازجة الخضرة في النور المصنوع، تتسلق جدران كشك خشبي مفتوح الباب، ووراءها أوراق التين الشوكي العريضة الكثيفة الجسد، أيديها ممدودة مدببة السنان، خضرتها غضة وشرسة وتوشك أن تتفجر بدمائها. أكوام تراب الفحم عالية ولامعة السواد بجانب الخضرة. القطارات قد أفرغت من سكانها، ونوافذها فوهات محترقة وعليها سواد الدخان. والدبابات الفاتحة اللون في الليل يقظة ومعمورة، خارج السور الحديدي الطويل، مدافعها ثابتة تخترق الظلام، مترصدة.

طلقات الرصاص بعيدة، تتجاوب متقطعة لها أصداء تتردد بين الشوارع التي انحسر عنها الناس، فاتسعت وهي تشق قلب المدينة الصامتة. والبيوت خارج سور المحطة مرصوصة ومتطابقة ومسدودة النوافذ، غارقة في الماء، مظلمة كلها، أعرف أنها مغلقة على نفسها، حقل من أزهار عباد الشمس الحجرية في الليل طوت أوراقها القديمة الصلبة على بذورها وتضامت أعمدتها الساقطة التيجان واقتربت بدون صوت من بعضها البعض فلم تترك بينها فسحة لاعتداء الليل.

وقع خطواتي ثابت وواثق على الحجر وأنا أرتفع، في الظلمة، على حافة بناء شاهق يقف على طرف جسر ترابي مرتفع، وتحته الماء الراكد كأنه مرآة ساكنة السطح، مدت عليه ألواح من الخشب تصل بين

الـرصيف وحائط البنـاء المتين الأحجـار. أصعـد السـلالم الخـارجيـة المنحـوتة خـارج البرج، من غـير سياج، كتـلاً صغيرة ضيقـة وعـرة، مرصوصة فوق بعضهـا البعض، من حجر أبيض ثقيـل الملمس تحت قدمي.

أرتقي السلالم الحجرية بعزم معقـود وأساسي، وأنـا أرزح بالنشـوة والغضب، معلقاً على حافة هـذه السماء التي امتـلأت بجسد الليـل. أعـرف أنني لا أستطيـع النـزول، أنني لا يمكن أن أنـزل الآن، وأنني أصعد إلى هذا الوجه بسمرته الصافية، وموج عينيه، إلى هـذا الجسم النـاعم الراسـخ الذي سيبقى معي إلى يـوم موتي، وأنـه لا يمكن أن يفصل بيني وبينها شيء.

(٤)

كانت الشمس شتوية مغسولة، وهواء البحر يأتي إليّ من فوق ربوة الرمل الجاف التي ترتفع مباشرة على جانب الرصيف الحجري العالي في المحطة. أقف وحدي في المحطة الخلوية التي ليس فيها أحد، أحس الحجر الأبيض الهش فيه خيانة كامنة، تحت قدمي، والقضبان الحديدية تنساب فجأة بصمت بين الرصيفين القائمين، يرتفع على جانبيها صفان من الأعمدة الرقيقة تلتف حولها أغصان متلوية رفيعة الجسد من الحديد المشغول، كأنما تعتصرها في شبق مكتوم. أرى الأعمدة تصعد نحيلة، ولامعة في نور الصبح بلمعة منطفئة، حتى تعلو عن الربوة الرملية وهي تحمل السقف الزجاجي المحدب المحمل على عوارض أفقية مسطحة بينها أعمدة متينة قصيرة تترك فجوات للنور والهواء على شبكة العوارض. لوحات السقف الزجاجية تومض عليها الشمس وقد ضربت فيها عروق الحديد المستقيمة وشرايين متشرجة من دخان القطارات المتراوح السواد.

هبة هواء تحمل ورقة صحيفة يابسة على القضبان، ترفعها وتتخبط بها فتخشخش على الزلط بين الفلنكات الخشبية بمساميرها الغليظة الرؤوس، بصوت مسموع.

تتفرع القضبان بعد انتهاء الرصيف مباشرة إلى شبكة واسعة متعرجة ومتلاقية ومتفارقة ومتواشجة تدور وتنحني حتى تنتهي في البعد الغامض، تحت شمس بيّنة، إلى ركام من أحجار قديمة، وأسياخ الحديد الصدىء وأكوام الفلنكات الباهتة الخشب، وصهريج ماء فارغ مدور ومقلوب على جنبه متغضن الجدران امتلأ نصفه بالرمل والزلط، وجدران أكشاك تقشر طلاؤها الأخضر العتيق، ساقطة بين أجسام الصبار والتين الشوكي الغليظ الأقراص.

كنت وحدي، أنتظر القطار الذي تأخر كثيراً وأسأل نفسي بقلق في هذا الخلاء: هل جاء وذهب؟ ولم أنتبه إليه؟ كيف يمكن؟ ولم أكن أعرف مع ذلك إلى أين سيمضي بي القطار، إذا جاء؟ مرسى مطروح؟ أم أبو قير؟ هل هذه محطة الضبعة أم العصافرة أم عين الشوك: عين الشوك؟ أهذه محطة؟ أين هي؟ كأنني لم أعرفها قط، وهي مع ذلك مألوفة أركب منها كل يوم.

نفح عطن خفيف جداً لا يكاد يحس يسري إليّ على مهل من الجانب المفتوح للمحطة، عبر منحدرات رملية واسعة وهينة التحدر داكنة اللون قليلاً من البلل. من ورائها أحس فقط، ولا أرى، مستنقعات الملاحة والهيش المتكاثف فوق الماء الثقيل.

وفي وسط سهل الرمل الصلب العريض أرى، من بعيد، بيتاً حجرياً يبدو صغيراً، وحده، له شباك مغلق، وعلى سطحه غسيل منشور، ملاءات مصفرة البياض وجلاليب نسائية ملونة ترفرف في العراء بصوت اصطفاق القماش الخشن في الهواء.

رفعت رأسي كأنما حفزني شيء لاعج ومفاجىء، فرأيت أختي

لويزة تجري بقدمين خفيفتين حافيتين، كأنها ترقص على موسيقى واسعة الجناحين لا أسمعها، على طريق غير مرصوف، فوق الربوة الرملية العالية، وشعرها الوثير الفاتح اللون يطير في زرقة الهواء، وفستانها الخفيف يهفهف حول ساقيها البيضاوين الممتلئتين، المتحركتين في رقصتها بلا وزن ولا ثقل، كأنها تسبح، يحملها الهواء من غير أدنى مقاومة. وكنت أعرف أنها ماتت منذ سنين، محروقة، في المستشفى الفرنساوي في اسكندرية. وكنت أحمل في قلبي نظرتها الأخيرة قبل أن تموت، وقد تمددت على فراش المستشفى، بلا حراك الآن، ضاوية، جافة، جلد ظهرها كله احترق وسقط، ولحمها الموجوع مكشوف الأعصاب تحت الضمادات الكبيرة برائحتها النفاذة الحريفة، وقد أنهكها عذاب الحرب والعلاج الطويل والتخدير المتصل فما عادت قادرة على الكلام. أمسكت بيدها وأحسستها تسلم يدها لي، من غير حركة، وفي عينيها المثقلتين المفتوحتين على سعتهما سؤال لا رد عليه، وعتاب نهائي.

وكان وجهها البيضاوي الممسوح مرفوعاً إلى فوق، في رقصتها المتماوجة، مضيئاً بنور ناعم من سماء البحر القريب.

أخذت أجري معها، وأنا تحت، أجري بين القضبان في المحطة التي تتسع وتنحدر وتطبق علي، وسقفها أجده منخفضاً وعريضاً وبلا نهاية، والقضبان تتلوى حوالي، بين قدمي، بتفريعاتها الخبيثة الشكل. وقد امتلأت المحطة فجأة بالناس المسرعين مسافرين وواصلين، والحمالين، الذين يجرون أمامي وورائي أكاد أتعثر بهم. وأجد نفسي أمام حواجز حديدية مشبكة مغلقة من خلفها المراقبون يتربصون بي، وفي أيديهم المقراض الحديدي الضخم البشع الحواف،

بلسانه المدور الحاد الذي أعرف أنه لو انطلق بضغطة من اليد من بين الفكين القابضين فسوف يثقب صفحة قلبي المثقلة بسنه القاتلة المدببة، ثقباً واحداً، يغوص حتى النهاية، والصمت. وأكاد أصطدم بالمفتشين في البدل الميري الداكنة واقفين، يعرفون، وينتظرون، ووجوه أخرى، كثيرة كثرة، جامدة تماماً، غير حليقة، تطل عليّ من نوافذ القطارات الطويلة التي أجدها عن يميني وعن يساري، فأجري، تحت، في وهدتي الحديدية المتعانقة الخطوط، بلهف ومضض، وأعرف أنه لا نجدة لي.

كنت أريد أن أصعد إليها قبل أن تختفي وراء ربوة الرمل بعد المحطة. أريد أن أتلمس طريقاً إلى الجسر اللدن الطري الكتلة، وأعرف بمجرد الرؤية أن رمله الناعم سوف ينهار تحت قدمي لو استطعت أن أجد السكة إليه، حتى لو استطعت أن أضع قدمي عليه.

وكنت أتسلق المرتفع الرملي الآن، قدماي لا تثبتان، تنزلقان على الرمل الذي ينحدر فجأة تحت ثقلي. وأرى، وأنا فوق، الشارع الرملي الطويل، غير مسفلت، والبيوت عليه من الجانب الآخر منخفضة وحجرية بنافذة واحدة عريضة كبيوت المكس والدخيلة القديمة. وأعمدة النور المتلاحقة على رصيف واحد من الشارع مطفأة في الغروب الذي يظلم سريعاً. وفي الشارع، عميقاً تحت، امرأة عجوز نحيفة الجسم جافة، بملابس سوداء متربة، وعلى رأسها طرحة قديمة مشعثة، وهي ترفع إليّ يدها، ولا أفهم ماذا تريد. هل هي تطلب مني شيئاً أم تعطيني؟ ويفدحني ويعذبني أنني لا أعرف، بينما أعلو فوق الرمل وأهوي. وفي غبش الغسق الناعم الملمس تنفتح

النافذة الوحيدة في بيت تحتي مباشرة، من الناحية الأخرى عبر الشارع الخالي، والنور من مصباح كهربي عار ينصبّ وراء وجه المرأة التي أعرفها وأحبها، مدوراً، وخمرياً، وأسيل الوجنتين، ولكني لا أراه فهو معتم في النور الذي يأتي من خلفه، ولا أرى لون عينيها ولكني أعرف من زمن سحيق خضرتها العميقة بلون الصبار الغض القديم، وأحس نعومة جسمها وانسياب ثيابها ووهج النور على شعرها المغدودن الكث. وأريد أن أناديها وأمد إليها ذراعي فأسقط على الرمل. وأحس نفسي أتدحرج عليه، وأهوي وعلى وجهي مس حبيباته الرقيقة أنشق رائحتها المصوحة، وأنا أتشبث بيدي كلتيهما بالكتلة المتهاوية التي تفلت من أصابعي. أثبت قدمي فلا أجد موطئاً، وأحتضن الرمل اللين فلا أجد موئلاً ولا ما أضم ذراعي عليه. وأعرف أنني مهما تمسكت به فسوف أنحدر وأنقلب، وأهوي إلى ما لا نهاية ولا قرار.

وأجد نفسي، تحت، على طريق القضبان، في باحة هذه المحطة الغامضة التي غصت الآن بقطارات تصل وتسافر تنهج وتنفث وتصفر صفيراً ثاقباً تتردد أصداؤه بين جنبات المحطة. والنور الكهربي من الأعمدة العالية محصور وميكانيكي الوقع. وثم طاقة مهدورة تنفثىء فجأة تحت عجلات القاطرة السوداء التي تنزلق بصمت وتمكن، حتى تقف راسخة وعالية. قطارات تقوم بانسياب بطيء هادىء، تقلع بصدورها المدورة العريضة إلى محطات لن أراها أبداً. وقطارات خالية معتمة ترجع على أعقابها في مناورة حريصة لتدخل خطاً متفرعاً آخر، عجلاتها تخبط فجأة إذ تصطدم بالتحويلة في القضبان. أما أنا فأجري مبتعداً عن القاطرة القادمة، المداهمة، متجهة نحوي بإصرار. هل أنا

أجري من شيء أم أبحث عن شيء؟ أم أنهما كلاهما، ما يدفعني بلا هوادة إلى هذا الجري الثابت الخطى لا أحس له جهداً ولا عبئاً ولا يمكن أن يتوقف؟ لا أعرف. لا يهم. المهم هو هذا النداء الذي بلا صوت، ما أني أنشده، وأنتظره، ويشدني، فأجري وأثب بخفة كأنما يرفعني شيء ما، فوق درجات حجرية صغيرة، درجتين درجتين كل مرة، في آخر الرصيف، وأدور إلى الوراء بعيداً عن سماء الليل المفتوحة، بعيداً عن أخطار القضبان التي لا أدري أيها سوف يمر عليه القطار المهاجم. وأدخل مرة أخرى إلى كن المحطة المسقوفة بالزجاج المعتم والحديد المغروز، بين صفي الأعمدة الملفوفة الجسم، فأجد في وجهي مصعداً ضخماً ليس له باب. ما أكاد أضع قدمي على أرضيته الخشبية العريضة حتى يصطفق له باب ذو مفصلات منزلقة تنفتح فجأة بعد انكماشها في مخابئها، وتتمدد، فيوصد على المصعد الثقيل الذي يهبط، بين أعمدته المكشوفة، على أرصفة متعاقبة أحدها تحت الآخر، حتى يصطدم بالأرض. وينفتح الباب تلقائياً على مخزن شاسع معتم ورطب الأنفاس في دور سفلي ليس فيه إلا أكوام الأخشاب المرصوصة الشاهقة الارتفاع، نقية وميتة وعارية.

أجري مستريح الخطو، وصدري فسيح وهادىء، إلى فوهة منيرة ساطعة، مشدوداً إليها بدعوة لا غلاب لها، فأدخل في نفق واسع دائري الجدران كأنه أنبوبة مبطنة ببلاطات الخزف الصيني تومض ببياضها الزلق ولا تنتهي ولا ينتهي جريي فيها، حافياً، أحس دفء الجرانيت الأحمر الخشن الوجه تحت باطن قدمي. والضوء القاسي يهبط عليّ ثم ينقطع، ويسقط عليّ من جديد، حزماً متعاقبة لا رحمة فيها، من مصابيح عريضة التدوير ومسطحة ومتقدة بوهج بارد،

تتلاحق فوقي إلى ما لا نهاية. وهواء الأنفاق المحمل برائحة خاصة يهب على وجهي الذي أحسه يتفصد برشح العرق، دون أن أنهج، وليس في صدري ضيق ولا غضب، ولست خائفاً، ولا أطلب شيئاً، كأنني فقط أؤدي واجباً، ولن أصل أبداً إلى شيء.

وكأنما هذا هو.

هذا هو حقاً قطاري. الذي إن ذهب فليس لي غيره.

قطاري يرتفع أمام وجهي عالياً، راسخاً

لكنه يقف على الناحية الأخرى من الرصيف، وأنا تحت بين القضبان وفي يدي حقيبة صغيرة ولكنها ثقيلة.

والعربة مرتفعة، سلالمها الضيقة الحديدية يصعب ارتقاؤها من حيث أقف. الكمساري يطل عليّ من الباب السميك المفتوح إلى الداخل. وجهه غير حليق ومظلم وهو ينحني عليّ، يمد إليّ يده من عير مبالاة. لم أسأل، ولم يقل شيئاً. أحاول أن أرفع يدي إليه، أن أصل بيدي إلى قبضته. يجب أن أصعد إلى القطار. هذا القطار، وحده، دون غيره، يحمل شيئاً أو شخصاً هو الأعز إليّ، هو الذي يعطي كل شيء معناه. والجهد الشاق لا يكاد يحتمل، وفي ذراعي ثقل لا يطاق، وأبذل كل جهدي، ويدي لا تصل، بينما القطار قد أخذ يتحرك. لا أستطيع الصعود مهما حاولت، والقطار يتحرك ببطء. العجلات الشريرة العارية تدور على مهل، ساكتة مصممة، ثم تتسارع قليلاً، وأنا أجري بجانبها تحت الباب المفتوح، يدي بالكاد تحت يد الكمساري الممدودة التي ليس فيها كبير اهتمام على أي حال، ولكنها ممدودة إليّ، لا ألحق بها، القطار أسرع مني، يستجمع

عـزماً يفـوق عزمي، ويفلت مني. ايقـاع انطلاقـه لا أدركه. يـذهب عني. أفقده. وضعت في ساقي كل قواي، جرياً، ممدود اليد، مثقـلاً بحقيبتي الصغيرة، وكأن قدمي مكبلتان وهمـا تخبطان الأرض، الآن، ترتفعان بالكاد وترتطمان بـالأرض التي تشدهمـا بقوة وتقبض عليهـما. أتحرك بكل ما في قلبي من اصرار، في استنفاد. وهأنذا قـد ضاع مني قطاري. تصلبت ساقـاي وناء بجسمي كله وطء رازح في العضـلات التي سفحت كل قطرة من جهدها. أجري بإيقاع ثقيل تتخبط ساقاي احداهما بالأخرى، وقد مضى القطار عني، بقوة، وصفر صفيراً أجش ملأ سماء الليل. أطامن الآن من اندفاع ساقي اللتين لهما ارادة خاصة ويائسة ومستقلة. ولكني لا أجـد في صدري حـرجاً، أي حـرج، ولا أجد أنفاسي تتدافع، بل كل شيء هـادىء وفسيح، وأنـا وحدي، لا أريـد شيئـاً، ولست حـزينـاً، ولا قلقـاً، ولا واجفـاً، بـين القضبـان المتـواصلة المتباعـدة في باحـة هذه المحـطة الساكنـة الآن تحت السـماء الخالية.

وسمعت النداء.

من يناديني؟

كنت في الشارع النظيف المبلط بالبازلت الأسود المحدب قليلاً، في وسط ساحة ضيقـة تلتقي فيها قضبـان الترام الـدائريـة التي تلمع من المطر، وقد أقلع الآن وترك في السماء سحاباً أبيض يطفو عـلى الزرقـة المغسولة. وأنـا أريد أن أعـبر الشارع من أمـام جدار مـدرسة السبـع بنات المصمت الطويل المرتفـع وقد نشـع ماء المـطر عند أعـلى بياضـه الكابي قليلاً.

عسكري المرور يستدير وينظر إليّ من أعلى بوجهه القـاتم المدفـون

العينين، ليس فيه أدنى تعبير، ويرفع ذراعه، يفتح لي الطريق بلا عناية.

أخطو خطوتي الأولى، وإذ بالساحة قد ازدحمت مرة واحدة بأربعة ترامو ايات قادمة هاجمة، مقدماتها الزرقاء عالية، مسدودة، تقتحمني وأنا في سرة الساحة التي ضاقت عليّ جداً. والسائقون الأربعة الذين أراهم كثيرين، بلا عدد، من وراء الواجهات الزجاجية المرتفعة، مهدّدين يمسكون بالعصى النحاسية الأفقية - القصيرة بقوّة وتمكن يهزونها أقل اهتزاز، بتصميم. والترامو ايات الأربعة جميعاً من كل الجهات تندفع إليّ على قضبانها في زئيرها الهادر. لا وقت للرجوع ولا للتقدم ولا للحركة في أي اتجاه.

محاصر، بل قد أطبق عليّ الحصار.

لا أريد أن أموت وأنا محاصر.

أنا الذي دفعت بنفسي إلى هذه البؤرة التي لا خلاص منها، وكأنني أنا الذي دعوت هذه القاطرات التي تقتحم على العالم، وتسقطني في هذه الحلقة المتزلزلة بالطاقة المهددة. فإذا لم أستطع أن أحطم الحصار؟ كيف أثبت له؟ وكيف أخرج؟ وهل أنا الذي جئت بنفسي فعلاً إلى هذه الوحدة التي تضيق عليّ، بقوتها المداهمة المتفجرة؟

وأنا في وسط القضبان وحدي على البازلت الأسود الشرير الذي يومض. والترامو ايات جميعاً تنقض عليّ، لعجلاتها صوت احتكاك الصلب، ثاقب تقشعر له كل جوارحي وتصطدم في دوي تتخبط له

جدران الشارع، تقرقع وترتطم، ثم يحل صمت تام. وأرى السحاب الأبيض ينزلق على هواء البحر المبلول.

وأسمع النداء باسمي.
من يناديني؟

كانت تقف وحدها على الرصيف تحت ربوة الرمل العالية الناصعة البياض، والنور ينسكب بين الأعمدة الباسقة بأغصانها الحديدية الوثيقة الحنان، من زجاج السقف بعروقه الصلبة الرقيقة، ورواسب الدخان القديمة باهتة عليه، مشعة بما تتشربه من صفاء زرقة السماء.

وجهها المدور بسمرته الرقراقة يضيء، وشعرها القصير المغوي تحيطه هالة من وهج شمس الظهر، وكأنه ذهبي مع أنه وحي السواد. عيناها تضربان قلبي بخضرتها الحوشية، صدرها بكبريائه ولدونته يداي تحدسان ـ وكأنما تتذكران ـ نعومته وحجم دورانه وتماسكه الطيع، وهي شبقية كأكثر ما يمكن، كأخصب وأملأ ما يمكن. هل هي التي تناديني؟ وفي عينيها هذه النظرة التي كأنها متحيرة، وهي عارفة. هذا الضوء الذي يسقط عليها إنما ينبع منها، مثيرة ومحبوبة بما لا يمكن أن يقاس.

دموع العمر كله لن تغسل وضر القلب الذي يشتعل مع ذلك بوجد ساطع اللظى. محرق. أهو مطهر من اللوثات؟

كانت لدنة، مليئة، في فستان حريري مقفل على رقبتها، وهو يسلم عليها. أحس يدها الرخصة متروكة له من غير رسالة. فلم يقبل. جاش في صدره أنه يريد أن يقول لها كم يحبها. امتدت يده إلى مؤخرة رأسها. في يديه من جديد دغدغة الشعر القوي الوحف،

حس النعومة وخشونة الملمس معاً في أطراف شعرها وعمقه. وقبّلها بصمت على فمها المبذول بصمت، في البدء، المستسلم من غير حركة، ثم ارتعش فمها تحت شفتيه، صدرها المحبوك يرتفع تحت صدره، يده تتلمس مؤخرة عنقها الغضة، أنفاسها تتسارع باللهفة القديمة التي يعرفها وتثيره، تنتقل إليه قبلتها، شفتاها متطلبتان متلمستان الآن تضغطان على شفتيه، فيهما اجابتها، كأنما تطلب النجدة من الوحشة، وتستغيث من القهر الجسدي.

ثم انفلتت عنه بسرعة ورفق وتحوط، وهي تنهج وقد تضرج الدم في سمرة خديها الرخيمة الملمس، وعيناها فيهما هذه النظرة الغائبة، صافية جداً، خالصة من كل غربة، وكأنها في الوقت نفسه مستغرقة في غربة نهائية.

كانت هي التي أفاقت. . أولاً، من بهرة المفاجأة.

قالت له: القطار. .

قال لنفسه: الحلم الحلم الحلم. وجوده الحجري الآن ثقيل. يتطلب أن يرفع عن كتفي.

وقال: كان الحلم خفيفاً، وطائراً محلقاً بين السحاب أرنو إليه بعين الاطمئنان، كأنه في متناول اليدين.

أما الآن فقد سقط عليّ بثقله الركين، ينوء بي، لا أستطيع أن أنهض به من الأرض.

ساقط أنا تحت وطأة الحلم لم أعد أقوى عليه.

يداي خاويتان تحتكان بالحجر والرمل الخشن، على مشارف مدينة منتهكة.

(٥)

كنا عائدين للاسكندرية بعد أن قضينا الصيف في الطرانة قرية جدتي. ذهبنا من السكة الزراعية، على الترعة الكبيرة المتدفقة بمياه الفيضان الحمراء السريعة الجريان. وكنا نركب أنا وأختاي الصغيرتان على حمارين، ومعنا الولد برسوم، ابن أرساني أفندي خال أمي، يجري حافياً ـ مع أنه ابن باشكاتب العزبة ـ إلى جانب الحمارين. رفع جلابيته بيده، وخلع حذاءه الجديد ووضعه تحت إبطه، وأخذ يحث الحمارين بعصا قصيرة من خشب السنط. وكان برسوم أصغر مني قليلاً ولكن معرفته بأمور النساء وأناث الحيوان أكبر مما أعرف بكثير، حتى ولو كنت قد سبقته، من زمن، في يقظتي الشبقية. وكان قد حكى لي طول الصيف عن مغامراته المراهقة مع القطط على سطح البيت في ليالي القمر، ومع الحمارة البيضاء في الغيط، وعن حكايات نسوان القرية وما يفعلنه في الذرة مع الرجال. وكانت حكايات.

ولما وصلنا محطة كفر داود، كان قطار الصبح قد قام وفاتنا. وجلسنا ننتظر قطار العصر في المحطة الصحراوية الخاوية، ولعبنا الاستغماية في المحطة كما كنا نلعب مع لنده ورحمة تحت شجرة الجميز الكبيرة أمام بيت جدتي. وفككنا الحبل من حول القفة الكبيرة،

وأكلنا من القراقيش التي صنعتها لنا جدتي من دقيق القمح والـزبدة. وشربنا من حنفية المحطة.

ركبنـا قطار الخط الغـربي بعربـاته الخشبيـة القليلة المقفلة، وكانت النـار تتوهـج في نور العصر بحمـرة اللهب الذي يفـح ويتّقد، مليئـاً ومتواثباً بقوة في بطن القاطرة المدور الأسود.

وعنـدما كـان القطار الـرقيق الصغير يشق جسم المسـاء بعـربـاتـه المتأرجحة كنت أرى على جانب القطار عيدان الذرة محترقـة وعاريـة، في آخر نور الشمس، نـزعت عنها أكـوازها المغلفـة بقشرتها الـدسمة الخضراء المضمـومة، ووضعت الثـار الغضة في أكـوام عالية متحـدرة على رؤوس الغيطان، وحطام أوراقها متناثر على سواد التربة، صفراء وهشة.

وانطلقت فجأة على الترعة العريضة أسراب متعاقبة من العصافير، داكنة اللون كأنها خفافيش صغيرة، أجنحتها رفيعة وطـويلة ومشدودة حتى آخر أطرافها، ترف قريباً جداً من سطح الماء.

وقبل ايتاي البارود كان الليل قد نزل ونامت أختـاي على المقعـد، وأضيئت المصابيح في العربة، مـطلية بـالأزرق، طويلة، وبيضـاوية، تريق نورها المنهك على المقاعد المصنوعة من ألواح رقيقة متلاصقة من الخشب اللامع.

ومر القطار بعربات الجـاز الصغيرة عليهـا خط عريض أسـود ينزل من الصنبور الأفقي في أعلى العربات ويلف على بطنها الداكن الحمرة في عتمة الليل المشعة، وهي مركونة عـلى القضبان الجـانبية في سـاحة المحطة.

كانت محطة ايتاي البارود مظلمة تماماً بالليل. وكنا قد نزلنا من الخط الغربي وصعدنا على الكوبري المعدني العالي فوق الأرصفة والقضبان، ونزلنا، أنا أحمل الشنطة المصنوعة من الورق المقوي البني التجزيع تقليد الجلد، وأختي عايدة ترفع على رأسها القفة الكبيرة الثقيلة التي تكدست فيها القراقيش، والوزة المذبوحة، وصفيحة السمن الجاموسي، كلها ملففة ومدكوكة ومصطفة بين اللفف والجلاليب المغسولة والفوط، وقد ربطنا اللحاف القديم الداكن اللون فوق القفة بحبل متين، مكشوفاً للعيان وله رائحة، أما أختي لويزة فكانت تضم بين ذراعيها ثلاث لفف صغيرة مربوطة بخرقة من القماش.

جلست بجانبي من ناحية، أختي عايدة التي ما كادت تبارح طفولتها بعد، ما يكاد صدرها الصغير يرفع فستانها الكستور الطويل، سمراء صعيدية، وشعرها جعد خشن يؤكد بسواده عينيها اللوزيتين، بنظرتها الحزينة، ومن الناحية الأخرى أختي لويزة، الصغيرة، بوجهها الأبيض وجسمها الممتلىء الطفلي، والتصقتا بي من برد الليل. كنا قد وضعنا الشنطة والقفة واللفف الأخرى الصغيرة على الأرض تحت المقعد الخشبي المقعر الظهر الداكن الخضرة في الليل، أمام جدار مبنى المحطة المظلم. كان مكتب الناظر وحده فيه نور أزرق كاب منصبّ مباشرة على عدة قطع التذاكر الحديدية الصغيرة، وراء الشباك بقضبانه المتقاطعة وفتحته الصغيرة.

دخل المحطة بصمت قطار عسكري طويل. الأرقام، والكتابة الذهبية الباهتة، غير مقروءة على بطن القاطرة المدور، والعربات لا نهاية لها، غاصة بالجنود الانجليز، امتلأت النوافذ المفتوحة بوجوههم

الملتبسة وأذرعهم المكشوفة في القمصان الكاكي بنصف كم، في النور الأزرق الشحيح، وهم يطلون على المحطة في نصف اليقظة ونصف النوم.

كان العطشجي في أول القطار يملأ خزّانه بالماء الذي كان له صوت صلب متدفق وأجش إذ ينصب من خرطومه المضلع الثقيل الجلد المثبت في الصنبور الأرضي الضخم. وكان القطار أمامنا على الرصيف، يقف موحشاً ومعزولاً لم ينزل منه أحد ولم يصعد إليه أحد، ولم يقترب منه أحد إلا باعة السميط والجبن واليوسفندي الذي تخطف العساكر بضاعتهم الهزيلة الشكل، وكانت صيحات المساومة بالانجليزية المكسرة والعربية المكسرة تتجاوب في الليل. هرب بعض العساكر إلى داخل القطار دون أن يدفعوا، وجرى البائع على الرصيف من نافذة إلى نافذة ينادي جوني جوني جيف هير فايف بياستر جوني فايف بياستر، وضحكات رفيعة وغير حقيقية، عبث الذاهبين إلى موتهم صبياناً أراهم من النافذة ليسوا أكبر منّي إلا بقليل، ناموا على المقاعد الخشبية في شحوب النور الأزرق. وانحنى ولد منهم له وجه طويل نحيل باهت اللون من النافذة أمامنا وهو يشير إلى أختي التي التصقت بي أكثر، وعيناها السوداوان مفتوحتان على سعتهما وليس فيهما خوف بل سؤال صامت عميق. وقال الولد بلهجة لم أكد أفهمها: بنت بنت كام أون.. فانتازيه.. كام ويذمي، وهو يضحك، وأحسست الدم يتدفق إلى رأسي وصحت به بصوت سمعته مخنوقاً وأبح: شط آب شط آب يوبلدي باسترد وضاعت صرختي ورأيت الولد العسكري يذهب في الليل فاغر الفم يضحك ولا أسمع له صوتاً إذ تحرك القطار فجأة وهو يصفر صفيراً أجوف

غائر الصـدي وينفث بخاراً أبيض كثيفاً في الظلام، ومـرت النوافـذ متسارعة الايقاع متتابعة مليئة بالوجوه الباهتة التي كأنمـا هي من الآن وجوه الميتين. ثم جاءت العربـات المكشوفـة المسطّحة الأرضيـة تحمل دبابات صغيرة صفراء مشرعة المدفع مربوطة بسلاسل قوية، ومعدات مفكوكة، وغامضة، مدببة الحواف، مغطاة بأغطية من المطاط الأسـود الثقيل. وسألتني أختي لـويزة مـاذا كان يقـول العسكري الانجليـزي فـرددت عليهـا بخشـونـة وعنف لا شيء لا شيء اخـرسي أنت كـمان فصمتت ورأيت الدموع تلمع في عينيها ولا تنسكب.

ســاد المحطة صمت مفـاجىء وأحسست هـواء الليـل بـارداً عـلى وجهي المندى بالعرق.

ضممتهـا إليّ ونحن نقف عــلى الــرصيف الخــالي تحت السقف الزجاجي المنير وأحسست صدرها الحريـري في حضني، صامتـة الآن مستسلمـة وقد أغمضت عينيهـا.. استكنت ريحانتـاي الخضراوان في رقرقة الحب الـذي لم أكن أعرف عنـدئذ مـدى الوجـع الذي سـوف يمضني من فقـدانـه ولا مخض الألم الــذي سـوف يــطوح بي الآن في وحدتي الصامتة. لأواء هذا الصمت الذي يجأر وحشياً وليس له أبـداً لغة ولا صوت.

وعندما جاء القطار أخيراً دخل على الرصيف الآخر البعيد ولم يكن في المحطة الصحراوية الصغيرة نفق ولا سلالم.

جرينا معاً متماسكين بالأيدي إلى آخر الرصيف، وهبطنـا، تتسارع أقدامنا بالرغم منا على نهايـة الرصيف المنحـدرة، ونحن ننظر لأحـدنا الآخر، وكدنا ننزلق على القضبان المزدوجة، وضحكنا.

والقطار يتحرك إلينا فجأة ونحن تحت. تعلو مقدمته الحديدية المربعة الشكل البارزة إلى الأمام، فوق رأسينا مباشرة. وأرى الخطوط العريضة المعدنية لا إيقاف لها أمام عيني، قريبة جداً. ساقاي تفلتان مني وأسقط على القضبان، أمام المقدمة تماماً. ويخطف في قلبي الروع عليها. أين هي؟ أسالمة هي؟ ألم يحدث لها شيء؟ حنوي لها يعصف بي وأنا على الأرض. السائق يطل من باب القاطرة على جنب يشور بيد ويهتف بشيء لا أسمعه، ويده الأخرى في الداخل تضغط على شيء ما، على عمود، أو زر، أو حلقة. وأحس يدي على الزلط والرمل الخشن تضغطان منه بقوة، بشدة، بكل ما في جسمي من أيد واصرار، لكي أوقف معه القطار الزاحف علينا بجرمه الضخم، ببطء، كأنما لن يرده شيء أبداً، فيه طاقة مكبوحة وساحقة. وأرى المصباحين الأماميين المستطيلين بزجاجهما الصلب المطفأ تومض عليه أشعة الشمس وتنعكس على عيني. وأجدها معي تسندني بذراعيها كلتيهما، وأنا أقوم بحركة أحسها بطيئة لا تنتهي، وقد نزف من قلبي كل حس كأنني غريب. ونحن نتحرك معاً أمام القطار الذي ينساب وراءنا مباشرة، باصرار. والرصيف قد امتلأ فجأة بالناس يصرخون، لا بد أنهم يصرخون ولكني لا أسمع صوتاً، ويلوحون بأذرعهم ويجرون على الرصيف معنا وينحنون ناحيتنا، يصيحون بنا بلا شك، وما زلت لا أسمع شيئاً. قدماي تتحركان أمام مقدمة القطار بالضبط ليس بيننا وبينها إلا خطوة واحدة لا تزيد ولا تنقص. لا يصطدم بي القطار ولا أسقط تحته. وهي معي لا أحس إلا بذراعيها تمسكان بي مسكة خفيفة ولكن واثقة لا تتركني. وجهها هادىء وعيناها تلمع فيهما الشمس بخضرة داكنة ليس فيهما خوف ولا قلق بل لا يكاد

يكون فيهما اهتمام وإن كانتا مغروزتين فيّ، ونحن نتحرك معاً بإيقاع واحد، بضع خطوات أيضاً، طويلة في الاحساس جداً، وكأنني أرقب شخصاً آخر يداهمه القطار ومعه حبيبته، متفرج، مدرك تماماً للخطر، ولكن بلا أدنى رعب، ولا أدنى توجس، أنتظر فقط. لو جاءت الصدمة النهائية الآن، وسقط كل شيء. لو تحطم كل شيء. لو حلت الظلمة الأخيرة والصمت. طبيعي، وحتم، وأكاد أريده، ولا أرحب به. ولكن لا أرفضه، لا أستسلم له أبداً. ولكن فليأت. .

القاطرة ما زالت تزحف علينا، تنزلق، وتكاد تلحق بنا. حتى يستطيع السائق بجهد جهيد أن يوقف القطار.

ونتوقف لحظة وما زال الصمت حوالينا ساطعاً وفسيحاً وكاملاً. ينحني الناس علينا يمدون إلينا أذرعهم ويرفعوننا من تحت.

للمرة الأولى أسمع لغط الناس وصياحهم ونداءاتهم ودبدبة أقدامهم على الرصيف.

الشيخ الذي يلبس جلباباً أبيض مكوياً له ياقة رفيعة قائمة تدور حول عنقه الضامر، وعلى رأسه طاقية من القماش نفسه، في يده مسبحة ويده الأخرى متوترة الأصابع مشدودة نحوي، وأسمعه، وهو يهمس: لا حول ولا قوة إلا بالله. الحمد لله. الحمد لله. والست الفلاحة البيضاء الوجه، بالملس الأسود المكشكش الذي انحدر على كتفها، وهي تهتف: اسم الله عليكم ياضنايا. ! دانتو انكتب لكو عمر جديد، يا ختي! اسم الله عليكي يا حبيبتي! اللهم حوالينا ولا علينا. والطلبة، بالبنطلونات والقمصان، والكتب في أيديهم، ينزلون

جرياً إلينا ويحتاطون بنا. والفلاحين بأجسامهم النحيلة تحت الجلاليب الصوف المفتوحة عن الصديري المزرر بأزرار صغيرة كثيرة، ووجوههم الصلبة المشققة، قد ركعوا نصف ركعة على الرصيف لا يتكلمون، على استعداد أن يهبطوا للمساعدة. والعساكر بملابسهم الكاكي وأحذيتهم السوداء الطويلة قد لحقوا بنا والتفوا حولنا الآن يضحكون بخشونة وارتباك بعد التوتر والشدة، ويرفعوننا على الرصيف بسواعد قوية. ونحن نعلو على هذا الجيشان المحتشد من الأذرع والأيدي واندفاع النجدة المتدفق بالتهنئة على السلامة والحمد لله.

ثم انفضّ الجميع فجأة واتجه الناس إلى أبواب القطار كأنما بخجل قليل واضطراب بين الضحكات القليلة وثرثرة الحس بالنجاة والانصراف إلى ركوب القطار.

هل كان بالأمس فقط أنه صحا من نومه جنبها محاذراً أن يوقظها، وقبّلها مع ذلك قبلة خفيفة جداً على شفتيها، فردت على قبلته وابتسمت وهي نائمة؟ ونزل، حريصاً على صمته وهدوئه، وانتهى من «طقوس الصباح» ـ كما كان يقول لها، فيضحكان ـ ولبس في السكون الصباحي التام وهي مستغرقة في نومها على سريرها؟ كانت قد قالت له: سريرنا.

وكانت الملاءة الخفيفة تغطيها حتى الوسط، وفخذها العارية السمراء، محتشدة بشبقيتها وجسدانيتها، تخرج عن الملاءة، وفخذها الأخرى كامنة مستترة، ولكنها هناك. كتفاها المدورتان تدعوان شفتيه، وشعرها الأثيث مندى قليلاً من النوم ومشعث قليلاً، نزلت خصلة منه رقيقة ومبلولة ملتصقة بجبهتها الصغيرة المستريحة، وخداها

متضرجـان. كانت مستلقيـة عـلى جنبهـا، كـل معـارك شهـوتهـا قـد انقضت، لحـظة، وتـركت جســدهـا البـاذخ بحتـاً، ممتلئـاً بحشـده الخـالص، في براءتـه غـوايـة خـاصـة لا يمكن أن تكـون ـ في حـالـة صحوه ـ بكل هذا الكمال. غائبة وكلها هناك في وقت معاً.

وكـان الديـك الأحمر عـلى الحاط الحجـري يفتح منقـاره في زقائـه الصامت المتصل وعيناه متوقدتان.

انحنى عليها، حفياً بها، ورفيقاً وساكناً، يـرد جواه إلى طي نفسـه حتى لا تعصف بهـا برحـاء شهوتـه وحنانـه معـاً، ولهفتـه، بينـما كـل جوارحه تنتقض عليه، وتجيش وتتوتر. كان ثدياها مضغوطين تحتها في النوم، مترفين في اكتنازهما وحريتهما معاً. ثمرتاهما الداكنتـان قائمتـان مـع ذلك، مـترعتان، جلدهمـا المشدود المـدور مخدد لا يكـاد بشقـوق دقيقة جداً، في نور الشمس المتقطر من النافذة الزجاجية المفتوحة على الصحـراء والأنقاض القـديمة. أمـا الوهـدات اللينة والـربى الـزاكيـة فملتفة بها الملاءة المتغضنة الملتصقة المهملة الثنايا.

أحاط كتفيها بذراعه، وامتـدت يده تسنـد نهدها المضغـوط وتلتف بـه، وهمس في أذنها: حبيبتي.. فتململت قليلاً في راحـة، وتنهدت. وأحس نهدها وادعا إلى يده ومطمئناً فيها. ورفرفت عيناها قليلاً وهي تمـوء من داخلها: أم م م.. بصـوت خفيض مبطرة بـالنـوم الـوثـير. قال: أمشي أنا الآن. مســافر اسكنـدرية، وأعـود الخميس بعد غـد. خليك، لا تقومي. أراك بخير. قالت وما زالت نـائمة بـالفعل وهي تعطيه خدها لقبلة سريعة: مع السلامة يا حبيبي.. لا تتأخر.

وأغفت في صمت في ليل نومهـا المضيء، لحظة، في أول الصبـح.

لم يكن قد خطا خطوة واحدة. وعندما اعتدل واقفاً استدارت على ظهرها وفتحت عينيها الواسعتين صاحية فجأة وقالت، بصوتها الطفلي المستعطف، فيه شكاة قليلة وتطلب للحنان:

ـ هل عدت يا حبيبي؟ حمد الله على السلامة. كم كان سفرك طويلاً. كم افتقدتك.

لماذا تأخرت؟

ترقرقت عيناه على الفور وعرف مرة أخرى طعنة الحب في قلبه.

وقد استقر الآن على مقعدهما الجلدي الصلب مسافرين معاً أخيراً في هذا القطار يقطع البراري المتموّجة حتى سطوح المياه الملحة المتخثّرة بحياتها الراكدة بين البوص والهيش.

ليس في القطار درجة أولى أو ثانية، والناس حولهما قليلون. عساكر نازلون اسكندرية في اجازة، خلعوا البيريه العسكري اللين من على رؤوسهم الحليقة نائمين تقريباً، وقد مددوا أمامهم أرجلهم في البنطلونات الكاكي والأحذية الميري. اثنان ثلاثة من البدو، بالملابس البيضاء والسراويل القماشية الطويلة التي تضيق عند نهاية الرجلين، في وجوههم نحول وصفرة محروقة. وشاب أعمى من المعهد حليق جداً ومتيقظ جداً، رفع رأسه إلى فوق بعمامته الحمراء الملفوفة بالشاش الأبيض، وجبته الطويلة على قفطان مخطط لامع، يقرأ بصوت خفيض ولكنه قاطع وواضح: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» والست البدينة أم ملس واثقة بجسمها الفياض بالأنوثة المتمكنة، تمصمص بشفتيها اللحيمتين: يا خويا.. صدق الله العظيم يا مولانا.. ثم تدخل في حديث طويل مع فتى واضح أنه طالب

عـائد لجـامعته في اسكنـدرية، البلوفـر الخفيف عـلى قميصـه الأزرق الفاتح المستـورد، والبنطلون الجينز، لا شك اشتراها مخفضة ببطاقتـه الجـامعية. . وأنت يـا بني فين؟ في الهنـدسة؟ ربنـا ينجح مقـاصـدك ويخليـك لشبابـك أنت واللي زيـك يا رب. طب دانـا عندي ولـد في الثانوية العامـة السنة دي حيمـوت نفسه في المـذاكرة يـا عين أمـه. . نفسـه يروح الـطب والا الهنـدسـة. ربنـا ينـولـه الـلي في مـراده هـو والسـامعين، وهي تنـظر وفي عينيها حسـاب ووزن، للفتاة بـالمنديـل الأبيض السابغ الذي يلف وجهها وشعـرها وينـزل من على كتفيهـا، وفي أذنيهـا قرط فضي صغـير دقيق، وفستانها بـأكمام طـويلة ينزل إلى الأرض، وسيـور حذائهـا المفتـوح تضغط عـلى لحم قدميهـا. والبنت تـدخل ذراعهـا في ذراع الطالب الـذي ينظر أمـامه كـأنه لا يحس مـا تفعـل، بينما هي تـرفع إليـه وجهها معـابثة ونصف بـاسمـة. والست تقول بصراحة الفهم والقبـول: ربنا يهنيكم ببعض يـا بني ويخبز لكم في الخير.

عربة القطار تقرقع بانتظام، وهي تصطلي بشمس سبتمبر الهادئـة، والشبابيك كلها معوجة محشورة في مجراها، وليس لهـا زجاج، يـدخل منها الهواء السخن، قام الفلاح الجاف الجسم يحاول أن يغلق الشباك في وجـه حبات الـرمل الـذي تسفيه ريـاح القـطار إلى الـداخـل، ولم يستطـع فجلس وهو يقول لنفسه شيئاً بصوت غير مسموع.

كـانت الرمـال ممتدة في نـور الصحـراء الأبيض حتى المـلاحـة التي تومض بموج بنفسجي فاتح ماؤه ساكن كالصفيح اللامع، يذوب عند الأفق انباهت الزرقة الذي ترتفع على حافته البعيدة عـمائر من الهـواء

المهتز، ركام من السحب لها طبقات كأبراج كنائس غامضة ثابتة وهفهافة معاً، متشعة بلون الملح.

كانت ذراعه قد استقرت على كتفها الراسخة الطيعة، من وراء مؤخرة عنقها التي يحس نعومتها على قميصه الصيفي، ويحس أيضاً دغدغة شعرها الجعد اللين، ويده قد هدأت على أعلى ذراعها النازلة تحت الفستان الحريري في دوران كامل الامتلاء.

وسأل نفسه: هل انتهى البحث؟ هل وجدت ما أنشده؟ وكان في داخله يقين لا إنكار له. ونادى: يا شبلي يا شيخنا. هل المعرفة دوام الحيرة؟ وحقيقة المعرفة العجز عن المعرفة؟ وقال لنفسه: أهذه جوهرة حبي؟ وكانت مستكنة إليه، حمامته السوداء الوديعة الآن، وردته السرية. نفسها هادىء وايقاع جسدها فيه رضي واكتفاء باللحظة الصامتة المشبعة. فأغمض عينيه عن ثرثرة القطار وجلبة الناس ودقات العجلات المنتظمة الرتيبة التي أتخمت نفسه، مرة أخرى، بالخدر الذي يهبط في جسمه وتتفتر به جوارحه تحت وقع الهدات المتراوحة في اصرار لا يخطىء أن يأتي، مرة بعد مرة بعد مرة، دون أن يبدو أن سيكون له أبداً انقطاع.

وحكى لها أنه في ليلة عيد القيامة الموحشة التي جاءت قبل أن تسقط القدس، عاد ماشياً للبيت في شوارع الاسكندرية الصامتة بعد أن انقطعت التراموايات. كان الاجتماع قد استمر طويلاً في الليل وكان الجدال واللجاج قد عصف وتقلب بالجماعة الصغيرة المتوقدة بالحماسة والشباب. وقال إنه كان قد كتب أخيراً مشروع البيان، وكانوا سيطبعونه من الغد بالاستنسل على الماكنة التي صنعوها بأنفسهم. وقال إن سذاجة ثوريتهم كانت بريئة وصافية وحمقاء

قليلاً، وكانت غضبتهم حاسمة ورفضهم قاطعاً. وخرجوا متفرقين، وعلى فترات، من المنزل الصغير في المكس الذي كان يقيم فيه سلامة العامل الوحيد في لجنتهم المركزية المؤقتة. وقال إنه ركب قطار المكس في الليل، خاوياً وقديماً وصغيراً، ونزل في محطة محرم بك، وكان يشبه هذا القطار.

رجعت إلى بيتنا في راغب باشا وأكلت سمكة بلطى مقلية باردة كانت أمي قد تركتها لي في طبق مغطى بفوطة نظيفة على مائدة الفسحة العريضة. وأويت إلى سريري وأخذت أقرأ في مجلة الشعر الدولية التي كانت تأتيني من باريس، بالبريد، حتى باب البيت. وفتحت الراديو الكبير الذي كانت له واجهة عريضة تضيء، عندما يشتغل، بالنور الأخضر. وتذكرت فجأة أنها ليلة عيد القيامة عندما سمعت صوت البطرك العجوز المنهك من الصيام الكبير، يرتل بالقبطية أسماء الآباء البطاركة القدامى جميعاً من مار مرقس الرسول حتى الأنباء يوساب، اسماً بعد اسم يبعث من أغوار القدم ويحيا بالترتيل، من جديد. رقية طويلة التسلسل لا تنتهي. وأحسست فجأة أنني ابن هؤلاء البطاركة العظام، آباء المدينة العظمى الاسكندرية والكور والجزائر، ولا يمكن أن تكون لي إلا أبوتهم، وأن ما كتبته منذ ساعات ونافحت دونه يربط بين قلبي وبينهم وبين الأرض المستباحة، برابطة حميمة خفية لم أكن أتبينها. وعرفت أن هناك تبريراً كاملاً لي.

كان الشاب الأعمى يصغي إلى حكايته باهتمام، صامتاً ووجهه مضيء ومتأمل وفيه وسامة لم يرها من قبل.

قالت له، هامسة، باسمة: طـول عمرك يـا حبيبي لك شـطحات غريبة جداً.

وفي عتمة خفيفة كأنه يتذكرهـا ولكنه يعـرف أنها هناك، في نصف حلم نصف يقـظة، سمـع نـواح القـاطـرة المـترامي في السـماء، والارتـطامات الحـديديـة التي يتردد صـداها في الليـل الفسيح خـارج حيطان غرفته. عويل معدني شـاك طويـل. بينما دق المنبـه إلى جانبـه يأتيه سريعاً وعصبياً ولجـوجاً. وأزيـز طائـرة ينطلق فجـأة فوقـه فيملأ غـرفته، يصعـد وراءه نباح الكـلاب التي تجمعت في الشوارع تجـري وراء صوت الطائرة وتطارده. كان البرص المصفر البياض ثابتاً مقلوبـاً على بطنـه ومفروش الأرجـل على سقف الغـرفة، في نـور سماء الليـل الغامضة، وذيله الطويل لا يتحرك. وفكر أن بحر البقر ونجع حمادي قد ضربت وأن الأطفال والعساكر يموتون. ولم يفكر في شيء آخر.

مر القطار بأسوار عريضة عالية في الصحراء عليها لافتات ضخمة بالانجليزيـة والعربيـة، وبين الأسـوار سيارات جـديدة مستـوردة من ماركة واحدة لم يستطع أن يحددها. مرسيدس؟ فولفو؟ بيجو؟ بألوانها الـزرقاء والحمـراء والصفراء والفضيـة، صفوفـاً متعاقبـة لامعـة تحت الشمس، كشواهد قبور معدنية.

ثم وقف القـطار في وسط العـراء الصحـراوي دون تفسـير، دون سبب. ليس هنـاك محطة ولا مـزلقان. السكـون الغريب يحـل فجـأة ويصمت النـاس مرة واحـدة ويهب الهواء المنعش في الصمت، جـافـاً وخفيفـاً، وفيه رائحـة البحـر، ورائحـة الـرمـل السخن. دخلت من الشباك ذبابة وحيدة زرقـاء كبيرة تقلبت ألـوان جناحيهـا الرفيعـين في شعاع الشمس، وهي تئز أزيزاً لحوحاً، عنيداً، يكهـرب الأعصاب،

وتحوم في دوائر سريعة متقاطعة، حتى اندفعت في النور خارج الشباك. قالت الست أم ملاية يا ختي خير اللهم أجعله خير، هو فيه ايه؟ وقام الطالب، سحب ذراعه من ذراع زميلته، وذهب إلى مقدمة القطار ليسأل، ربما، عن السبب. وانخفض صوت الشاب المعمم وهو يلم حوله جبته وقفطانه، يقرأ بصوت غير مسموع. وفجأة احتكت العجلات بالقضبان الحديدية في انتفاضة حادة، وتقلقلت العربات، واستجمع القطار قوته بالتدريج، وانطلق، بطيئاً في الأول ثم متسارعاً ثم منتظم السرعة، دون تفسير.

ندخل الآن على الاسكندرية، والعربات تميل وتنحرف إلى اليمين، وتهتز بين القضبان المتشابكة، وتتغير ايقاعات خبطات العجلات إذ تصطدم بالتحويلات المفتوحة. والقطار فوق ربوة عالية ضيقة يضرب بين الأعمدة والسيمافورات التي ترتفع أذرعتها وتنخفض وتومض بالأخضر الكابي بعد الأحمر المحتقن، والشوارع تحت جسر القطار خالية سوادها يلمع ببلل المطر وأشجارها تبدو، تحت، قصيرة ومقصوصة النواصي، تمرق فيها سيارات قليلة مسرعة. وتتوالى جدران المصانع والمخازن مقفلة وصارمة الشكل. كان البدو الثلاثة صامتين لا ينظرون إلى شيء، وجوههم منحوتة وجامدة. والبيوت الفقيرة الجدران عركتها تقلبات الجو والأمطار القديمة والشموس المتعاقبة، أدوارها العليا مفتوحة الشبابيك تتلاحق على مهل كأنها تطل على القطار. وبعد وحشة الرمل ومياه الملح الشاسعة تبدو البيوت دافئة ومكنونة على طواياها الحميمة، تقترب من جسر السكة الحديد المرتفع حتى لا يكاد يفصل بينها وبيننا شيء. والقطار يبطىء قليلاً فوق الفلنكات ويظهر الآن على جانبه، بوضوح، الزلط

والحصى ونباتات الحلفاء وبقع من الخضرة الباهتة، ونفايات ورق قديم وزبالة جففتها الشمس.

نوافذ البيوت وشرفاتها الخشبية القلقة تكشف من غير خجل، من غير أدنى حس بالخجل، عن حياة الناس الداخلية وملابسهم الداخلية وأثاثهم الداخلي الرث الكثيف المزدحم بالكراكيب، والجلاليب المرمية على مراتب بلا ملاءات، وفساتين ذابلة الألوان، ومرايا مكسورة الأطراف معلقة بمسمار وخيط على الحيطان وفوق الأحواض والحنفيات، والآيات القرآنية بالخط الثلث الفخم وصور مارجرجس، وبدر لاما، وأسمهان، والملك فؤاد، مقطوعة من المجلات ومعلقة في براويز مذهبة متقشرة الطلاء.

كان الشاب المعمم قد نام، مال برأسه على ظهر المقعد، والجنود قد وقفوا، طوال القامة، بعد أن لبسوا أحذيتهم، يستعدون للنزول.

وجاء المبنى الرمادي الكئيب بنوافذه الضيقة، المتقاطعة بالقضبان الرفيعة السوداء، وسوره المنخفض الموحش عليه أسلاك شائكة، وقامت عساكر الحرس في أبراجها صغيرة، كالدمى، على أكتافها بنادق لها ماسورة طويلة هشة.

وتنفتح الشوارع فجأة تحت الأكمة التي ينزلق عليها القطار، وترتفع اعلانات الكينا الحديدية فيها رأس أسد ضخم ووديع ناتىء الأنياب وله عيون انسانية جداً. وثكنات بلوك النظام بجدرانها الكالحة، ونوافذها المربعة، منشوراً عليها الفانلات والسراويل العبك المصفرة الطويلة الرجلين، والبدل الكاكي المغضنة الداكنة من بلل الغسيل. ثم مستشفى الرمد يبدو عالياً إلى جانبنا، أنيقاً، وحيطانه

بـالطوب الأحمـر الداكن، ولـه أبراج وأعمـدة رشيقة هيلنيـة الإيحاء، وحـوله أشجـار النخل السلطاني السـامقة تنـوس جدائلهـا المدورة في زرقة السماء.

نظر الطالب المترفع إلى زميلتـه المحجبة المعـابثة بنـظرة فيها نصف ابتسامة. وقالت الست أم ملايـة ملس حمد الله عـلى السلامـة. ولف الفلاح العجوز مسبحته حول اصبع يده، وتنحنح في تشوف مشـارفة الوصول.

ونحن ندخل في هـواء البحر الـرطب إلى ساحـة معقدة بشبكـات القضبـان المتوازنـة والمنفرجـة والدائـرية ذاهبـة في كـل الاتجـاهـات، وأعمـدة السيمافـور المتتابعـة عن قرب، والمخـازن الجانبيـة الحجـريـة والخشبية عليها تعريشات كثة من اللبلاب وتحت جدرانها نباتات التين الشـوكي والعتـر البلـدي، والقطارات المـركـونـة الخـاليـة، وعـربـات البضاعة المقفلة وحدها من غـير قاطـرات، جدرانها لهـا لون صـدىء وعليها أرقام طويلة جداً بالانجليزية، مهملة.

وفي العربة كلها تنهيدة راحة فقد أوشكت رحلتنا على الأنتهاء. ثم دخل القطار فجأة في النفق.

أطبقت الظلمة الكاملة مرة واحدة وارتفعت صرخة ثاقبة قصـيرة، من الفـزع، وصيحات الـركـاب الملهـوجـة. وكـان القـطار يخبط في النفق.

خطر في ذهنه أن هذا النفق القصير تحت كوبري الحضرة لا يكمن أن يستمـر طول هـذا الوقت. واشتـدت ضمة ذراعـه حـول كتفهـا،

وأحس جسمها الوادع، بكامله، لصيقا به، دفيئاً وناعماً ومليئاً، من غير خوف، فيه الأمن به، والتسليم له.

كان القطار يندفع متحدراً إلى الأمام كأنه يغوص بمقدمته إلى عمق يزداد غوراً كلما مضى، يصطدم ويقرقع، في طريقه إلى جوف الأرض، وقد اطّردت سرعته وكأنها اكتسبت عزماً جديداً لن يلويه عنه شيء.

كل شيء يجري في ايقاع خاطف، والدقات المتلاحقة تزداد ارتفاعاً في النفق الضيق، ويتضخم صداها إذ تلتطم بجدران الحيز المحبوس. وكأنما تجمد الناس في هذه الانفجارات المتعاقبة القعقعة، وصمتوا تماماً، وتشبث كل منهم بمقعده في العربة التي تهبط مع سلسلة عربات القطار، لن يوقفه شيء الآن. اصطفاق الحديد ولجب الهديد في الظلمة الحاشدة التي أخذت تشف قليلاً، وهو يرى كل من حوله ساكنين بلا حراك، ولا يرى في ذلك أدنى غرابة ولا ما يستدعي السؤال.

يحس ثقل رأسها الهين على كتفه، وشعرها الوحف تحت عنقه، مستكناً إليه، وهي نائمة. خدينته الموموقة المشتهاة التي لانت له الآن، طيبة في حضنه، ووثيرة. هناك صمت عميق في قلب هذا العجيج الموقع المنتظم الدقات. وهي قد ألقت برأسها إليه. كأنما لا مكان لها في العالم كله إلا على كتفه ولا اطمئنان لها إلا تحت ذراعه. وفخذها اللفاء تحت النسيج الحريري الدمث يحسها إلى جانب رجله. ويدها الرخصة في يده، على حجره، مسترخية وهادئة في ثقل النوم.

في جوف الحوت المقتحم اللجج دعوتك فاستجبت إلى دعائي من

قلب نومك. وعندما طرحتني إلى عمق الجب أحاطت بي مياه الحنو الكثيفة الساجية وانفتح لي هيكل قدسك السلس المواتي، اكتنفتني غمرات جسدك المترقرق بين ذراعي، في العتمة الشفيفة، والتف بي عشب البحر الغض المترجرج في موجه. أحاطت بي وهدتي اللينة وتفتحت لي مغاليق كنزي. وكان اصطفاق الصنوج ساطع الدوي ونهائياً.

واندفع نور الشمس فجأة في القطار.

في اللحظة التي انتهى فيها النفق أحس أن القطار قد اصطدم صدمة أخيرة بشيء مطاوع وهيِّن القوام. ووقف.

كان الناس يتدافعون بصمت، كأن ليس في الأمر شيء غريب، كأنهم ينزلون إلى المحطة التي يعرفونها، وكل منهم مشغول بهمومه وحده. وثب الجنود، كعادتهم على كل حال، من النافذة. وكان الشاب المعمم هادئاً يتحسس جدران القطار وظهور المقاعد الجلدية بيديه، من غير لهفة، في طريقه للخروج والولد يحيط بذراعه خصر فتاته ذات الفستان الطويل، يسندها، وكأنه غائب لا يسأل ولا يهتم حقاً، كأنه فقط يؤدِّي واجباً.

كانا معاً متماسكين بالأيدي في ضمة حميمة ويائسة، عندما سقطا من باب القطار في نور الظهر الفسيح. غاصت أقدامهما في الرمل الناعم. وكان شاطىء البحر أمامهما مباشرة، والموج يأتي وينحسر، مياهه المزبدة تضرب صخوراً صغيرة مدببة ومشعثة، قديمة الصفرة، منقورة بحبيبات دقيقة سوداء، وتذوب رغوتها بحفيف هين على الرمل، بين الصخور.

مقدمة القطار مدفونة بأكملها في الرمل، كأنما قذفتها قوة الاندفاع الأخيرة. وبقية العربات ما زالت تحت الجسر الحجري العالي، واقفة في عتمة النفق المدور الطويل. ولم يعد هناك أحد.

والبحر فسيح، شاسع، نقي الزرقة، تلعب عليه خطوط الزبد المتعرجة ترغى وتختفي. كانت الأعمدة الحديدية الناحلة معوجة وساقطة على الرمل، وأنقاض المحطة تحيط بها، على شاطىء البحر. الأحجار الضخمة ساقطة وصامتة كأنما أطاح بها زلزال، حوافها مكسورة بين أكوام من الهدد والزلط. وعوارض. حديدية محترقة ومتلوية شاخصة من بين الركام. وقضبان السكة الحديد متقاربة من أحدها الآخر أمام مقدمة القطار، ثم متطابقة ومغروزة في الرمل. وأمواج السقف الزجاجي ما زالت معلقة في الهواء، جانحة، تهدد بالسقوط، ولكنها ثابتة، مدلاة من عمود مائل واحد قد استقر، في وضع لا يصدق، بين نتوءات الرمل والحجر والحديد.

كانت تقف إلى جانبه، جسمها الغض يلخص له العالم، بلغة حميمة من غير صوت.

وتحت أقدامهما مباشرة، تحت حطام المحطة المدمرة، كانت هناك هوة محفورة، عميقة، ضخمة وواسعة، وجدرانها المتماسكة غائرة. وعلى قاعها العريض، تحت، بعيداً، تتحرك قامات صغيرة تحمل على أكتافها قفف الأسمنت المخلوط. من أين جاؤوا بها؟ ليس هناك على الحافة إلا كتل مكسرة متهاوية تكاد تنقضّ من على طرف الحفرة الفاغرة، والأرض رملية تحتها، هشة ومتفتتة.

ورأى، من غير دهشة، اثنين من الصعايدة، تحت، ينفصلان عن

صف الناس، رآهما صغيرين جداً كأنه يطل عليهما من حالق، يتحركان حركة ايقاعية بطيئة موزونة، وفي أيديهما عصى التحطيب، مرفوعة، وهما يصطدمان بالعصى، ويناوران، يرجعان ويتقدمان، يتقاربان ويتباعدان. ويدوران أحدهما حول الآخر في رقصة موسيقى رجولية، والجسم مشدود بكبرياء وخفة.

أحس الحافة تحت قدميه تكاد تفلت وتتداعى، فاشتدت قبضته على يدها.

هبت رائحة البحر ملحية ومطهرة. ونظر إليها، ولم يتكلم، ولم يبتسم، كانا، فقط، في وسط الأنقاض، معاً.

الاسكندرية ابريل ١٩٥٥

القاهرة نوفمبر ١٩٨٤

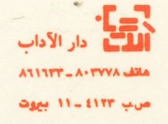
الفهـرس

وجه مقطوع ٧
أشواق المرايا ١٥
من غير إجابة ٢٤
مخلوقات ملكة عبد الملاك ٣٢
بيت قديم ٣٩
ع المسرح ٤٨
على جسر ممدود ٥٧
القرد والأطفال ٦٥
رقصة الأشواق ٧٣
محطة السكة الحديد ٨٣

تصميم الغلاف : نجاح طاهر

في عتمة أول المساء رأيت هذه المخلوقات الشمعيّة، مائلة على جنبها، ثابتة الجوارح، تطير تحت السحاب الذي بدأ يشفّ الآن من نور القمر المقطوع، تحملها ريح خفيفة. ومن بينها فينوس. حيّة صغيرة القدّ، ينبض جسدها، شمعيّة التقاطيع وجهها أعرفه، وأحبّه، كم لثمته.





دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت